RAB-383

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

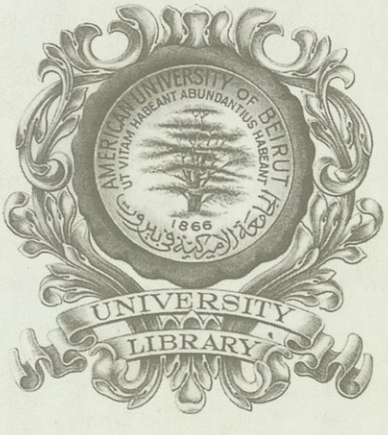

A.U.B. LIBRARY

CA
089.927
M991KA
C.1

الكلمات

دين ونقد وأدب

خمسون كلمة نشر أكثرها في البلاغ الأسبوعية والسياسة الأسبوعية الحافلة بعنوان "كلمات صائم" في رمضان سنة ١٣٤٤ وبعنوان (الكلمات) فيما بعد بأبضاء

محمود مصطفى

المدرس بالتجارة المتوسطة .

حق الطبع محفوظ

الطبعة الأولى

١٣٤٤ — ١٩٢٦

الثمن ١٠٠ مليم

المطبعة الرحمانية

بالخرنفش بمصر رقم ٣٥

إهداء الكتاب

إلى ابن مصر الناشئ فى قراها ، فالمتعلم فى أزهرها ، فالمِدْره الفرد أمام قضائها ، فأضبط موازين العدالة فى محاكمها ، فالمفكر الأول فى إقامة جامعتها ، فوزير معارفها القاضى على سياسة دنلوبها

إلى رئيس الوفد المحاج لانجلترا الصارخ فى وجه معتمدها ، فوكيل الأمة فى المطالبة باستقلالها ، فالمحتمل للأذى والنفى فى سبيل إسعادها ، فالمحتفظ بحق مصر الكامل فى مفاوضاتها

إلى رئيس أول وزارة دستورية فى عهد مليك مصر فؤادها ، فجامع كلمة الأحزاب بعد ما أمعنت فى خلافها وعنادها ، فرئيس مجلس النواب بعد إشفاق الأمة على دستورها

إلى الرئيس المحبوب من كل قلب ، الذائع الشهرة فى شرق وغرب

إلى حضرة صاحب الدولة

سعد زغلول باشا

من فرد من « بنى وطنك » تعلم الوطنية من « ندائك » وآمن بالبلاغة فى بارع أدائك ، واستفاد الحجة من فضل صوابك ، واعتاد صراحة القول من فصل خطابك

محمود مصطفى

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين .

وبعد فهذه كلمات حاولنا فيها الإبانةَ عن زيغ العقائد فى بعض مسائل الدين ، والزايةَ على ما رأيناه من عوج فى ألسنة المتكلمين ، والفضيحةَ لبعض أسرار المرائين والمتصنعين . وقد استهدفْنا فى سبيل ذلك النقد لغضب الغاضبين ، وحقد الحاقدين . كما قاسينا أشد العَنَت من إلحاح المستشفعين. ولكننا مضينا لطيّتنا ، وتشبثنا بنيّتنا . واستعذبنا هذا العذاب فى سبيل الحق ، واستمرأنا تلك الغصص من أجل الصدق . ففتح الله علينا من أسرار الناس ما كان مغلقاً ، ووسع أمامنا من أساليب خداعهم ما كان حَرَجاً ضيّقاً . وأمكننا أن نطلع قارىء كتابنا على صور مضحكة أو مبكية من أمر هذا الناس ، المختلف الأجناس

ولو ذهبنا نسرد للقارىء ما عالجناه من أخلاق أدبائنا ، فى محاولتهم إخفات صوتنا . لرأى من أمورهم عجباً !! فمن « كلمات » تسرق من إدارات الصحف ، إلى شفاعات تبذل لأصحابها حتى يكفوا عن النشر ، إلى إرهاب لنا مرة وترغيب أخرى . إلى غير ذلك من كل ما يطول فيه باعهم ويضيق به ذَرْعنا ، حتى نهمَّ بالنكوص عن هذا الجهاد . لولا أن يعاودنا ما مدنا الله به من صبر نرجو أن يصاحبنا حتى نقضى حقاً علينا واجباً ، للدين واللغة والأخلاق . حقق الله رجاءنا وأدام لنا العون إنه على ما يشاء قدير

محمود مصطفى

١

الله

ما رأيت لفظاً استفاد من جلال معناه ما استفاده هذا اللفظ ، فإنك لا تنطق به حتى ينفتح له قلبك ، وينشرح صدرك . ولا يخرج آخر حروفه من جوفك إلا مصحوباً بهزّة تنبعث من صميم القلب فتصل إلى أطرافك وكأنها خالطت دمك فجرَت مجراه ودارت دورته .

هو لفظ يكفى فى جلاله أنك لا تستطيع أن تخفيه أو تُجمجم[١] به ، لأن أوله همزة تنفتح لها لهَاتك[٢] وآخره هاء لا تنطلق إلا من أعماق قلبك . فلا ينطق به ناسٍ إلا تذكّر ، ولا مُهوِّم[٣] إلا استيقظ ، ولا ذاهل إلا صحا . وما عهدنا غيره من الألفاظ يحوى كل معنى ويدل على كل مراد ويترجم عن كل سر ويجلو كل عظمة ، حتى كانت الدنيا وماحوت ، والعوالم وما شملت . لا تزن فى جنبه جناح بعوضة . فهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ

أرأيت الناس وما اختلفوا فى مللهم ونحلهم ، وما سلكوا من شعاب حقهم وباطلهم ، كيف أدّتْ بهم سبلهم على قصد وغير قصد إلى حظيرة الله ؟ ألم يقل صابئة النجوم ومجوس النار وعبدة الأصنام ! مانَعْبُدُهُمْ إلاّ

---

(١) الجمجمة عدم أبانة الكلام فى النطق (٢) اللهاة لحمة مدلاة عند مدخل الحلق
(٣) المهوم الذى يحرك النوم رأسه

لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى . فالله هو قُدّوسهم الأمجد ، وغايتهم التى لا تتعدد . ولكنّ ضعف همتهم ونقص عقولهم ومهانتَهم فى أنفسهم خَيَّلَتْ إليهم الالتجاء إلى الوسيط ، ولم يعلموا أنه منهم قريب ومن ورائهم محيط .

أما أهل الإلحاد من الفلاسفة فهم مهما تباعدوا من الأديان ، شديدو القرب إلى الإيمان ، لأنهم أكبروا مدبر هذا الكون وما فيه من جليل الآثار . فلم يرضَوا بزعمهم أن يقولوا : إله . ولكن قالوا : طبيعة . وأضافوا إليها من لوازم القوة والقهر والإحاطة والشمول مايكفُل لهذا النظام البديع اطّراداً ، ويضمن لتدبيره سَداداً . فطبيعتهم فى لغة جهلهم وعنادهم وسوء أدبهم هى الله فى لسان العابدين القانتين التائبين

ألست ترى من الناس إجماعاً على الحق وإن أبوا إلا اختلافاً ، ووحدانية لله وإن لم يرض بعضهم إلا فسوقاً وانحرافاً .

فالله الله أيها الناس فى عقولكم . وفى دنياكم وآخرتكم .

٢

محمد

كلمة لم تبق أذن إلا سمعتها، ولا شفة إلا تحركت بها . وإن البطولة الهائلة والعظمة المتناهية أن يكون لاسم البطل دوىّ بكل مكان ، وخفة على كل لسان .. ذلك هو محمد الذى نصلى عليه ونسلم لأنه كان رسول هذه الهداية التى نعِم بها المسلمون فجمعت كلمتهم ولمّتْ شَعثهم وهذّبت خلقهم وأخلصت نيّاتهم وطهّرَت سرائرهم وأحسنت توكّلهم وثبتت أقدامهم وقربتهم من ربهم وضمنت لهم نعيم الدنيا والآخرة .. ذلك هو محمد الذى يذكره الكفار لِما كشف من باطلهم ، وأبان عن ضلالهم . وكسر من أصنامهم ، وسفّه من أحلامهم ، وقبّح من عاقبتهم ، ولِما أنذربه من عذابهم ، يوم مآبهم ... ذلك هو محمد الذى أُوحى إليه الكتاب الكريم والذكر الحكيم فقال الملحدون هذا من عند غير الله ثم تهافتوا على معارضته فضل سعيهم وأبانوا عن عجزهم . وبقيت حجته قائمة تدفع فى ظهورهم وتَفُتُّ فى أعضادهم حتى وَهَنُوا واستكانوا وأصبحوا صاغرين .. ذلك هو محمد الذى جَفع العرب فى كبريائها وقد تحاشتْها قديماً هِمَم الملوك العظام ، وضم شتاتها ولم يكن لها يوما التئام ، وألان من شِماسها[1] وقد كانت شديدة العُرَام[2] .. ذلك هو محمد الذى كان المثل الأعلى على أن الهمة العظيمة لا تتكاءدها[3] الجبال الشُمّ

---

(١) الاباء (٢) الشراسة (٣) تصعب عليها

ولا تُعييها الأراوىّ العُصْمَ[1]، لأنه ألّف من شتّى الأهواء هوى واحدا، واستعان فى حرب الرذيلة بمن كان لها مؤيّدا .. ذلك هو محمد الذى كرّمه الله فجعل دينه آخر الأديان وضم إليه من شريف المزايا ما جعله فى كل أجياله دين البداوة والحضارة، وهادى الأمية ومُعين العلم .. ذلك هو محمد الذى أُوذى فى سبيل الله فقال اللهم اغفر لقومى فأنهم لايعلمون، وبُذل له المال وقيد[2] إليه الملك فقال لا أنظر من دنياكم إلى ماتنظرون ، ولكنها كلمة حق أؤدّيها أو أهلكُ دونها فانظروا ماذا تفعلون . فكانت كلمة الله هى العليا وكان مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا . سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ .

(١) الاراوىّ جمع أروى وهو الوعل والعصم جمع أعصم وهو الممتنع بالجبل (٢) سيق

٣

رمضان في العتبة الخضراء

كنت فى العتبة الخضراء الساعة التاسعة صباحاً فإذا هى مائجة هائجة على عادتها فى المَوْج والهيجان . لم يغير رمضان شيئاً من مظاهرها ولا هدّأ ثائرة من ثائراتها .

فهذه مشارب القهوة كثر فيها الشاربون ، وهؤلاء سُقاتها غادون رائحون . وتلك مطاعم السمك والفول تَفعَم الأنوفَ رائحةُ توابلها وكوامخها . وهؤلاء باعة الفطائر والحلوى قد أغرَوْا الناس بما عرضوا فى زجاج محالّهم من كل مايهشّ تحت الأسنان ويذوب فى الأفواه ، وهذا بائع الجبن واللحم القَدِيد[1] قد وقف أمامه مفطر ذهب فى الطول والعرض مذاهب بعيدة وبيده رغيف طويل من الخبز الرومى قد شقه نصفين وجعل يصفف فيه من شرائح القديد سَداة ولحمة حتى صيره نسجاً محكما وشبكة موثّقة . ثم هو قد أطبق الشقّين . وأعمل الشدّقين

هذه وتلك مظاهر لايختلف فيها يوم من رمضان عن مثله من شعبان أو شوال . فكأن هذا الجمهور العظيم من المسلمين فى مدينة القاهرة لم يستطيعوا أن يكون لهم من الأثر مايدل على أنهم يقيمون شعيرة من شعائر

---

(١) « البصطرمة »

دينهم ويؤدون فرض صيامهم . وهم لو أرادوا ذلك وحرصوا عليه لكان له مظهر أىُّ مظهر

مابالنا نُحس فى مدينتنا هذه كل مايكون من مظاهر العادات القومية وشعائر الديانات الأخرى مع أن أشياعها أقل منا عدداً . ألسنا نحس صيام إخواننا المسيحيين فنرى رُخْص أسعار السمك وكل ذى روح مدة صيامهم ؟ أو لسنا نرى مظهر شم النسيم فى ذلك البيض الذى قد تلون بألوان الطيف وامتلأت به حوانيت الباعة وأيدى الأطفال

لقد غلَوْتُ حين أنكرت مظهر رمضان ، فإن له مظاهر كثيرة . أليس من أعجبها وأدلها على التناقض بين الأسباب ومسبباتها ارتفاعُ أسعار المآكل ونشاط أسواق الخُضَر واللحوم وانبعاث الحياة فى أصناف من المتاجر تظل فى كساد طول العام . أو ليس منها ذلك السُّبات العميق الذى يستولى على مصالح الحكومة فلا تهُبّ من نومها إلا الساعة العاشرة صباحاً فى كل يوم ثم لا تلبث أن تتثاءب ساعتين أو ثلاثاً حتى تعود إلى ما كانت فيه من غطيط . أو ليس منها هؤلاء المتسوّلون الذين يملئون الطرق ويسدون عليك المسالك ويعترضونك بقولهم : رمضان كريم

٤

الصوم فى نظر الطب

أيها الأخ المفطر ! ! سأعظك اليوم ولكنى سأتحاشى أن أكون كخطباء المنابر أيام الجمع ، أو كعلماء الدين فى قولهم قال الله وقال الرسول . فقد طالما مَلِلْتَ هذا الأسلوب وصَدَفَتْ نفسك عنه

سأخاطبك باللهجة التى تأنس إلى حديثها ، وتذعن لبراهينها . لأنى أعلم أن الذى أَصَمَّ أذنيك عن المواعظ الدينية كونها لم تأتك من طريق علمك الحديث ، ولم ترْوَ لك عن فلاسفة العصر وجبابرة الفكر ! ! بل استندتْ إلى الدين الذى لعلك تراه علة التأخر وعقبة الرقى . فما رأيك يا أخى ؟ إذا كان من أحدث الآراء فى الطب أن الإمساك عن الطعام يومين أو ثلاثة أيام كاملة من أنجع الوسائل فى علاج كثير من الأمراض وأقوى الوقايات من الوقوع فيها

ماذا تقول فى أن بعض ملوك العصر يلتزمون الحِمْية ثلاثة أيام متوالية فى فترات بين الزمن لا يتناولون فيها غير الماء القَراح ويرى لهم أطباؤهم أن ذلك ذريعة إلى النجاة من الهرم والتحفظ من كثير من الأدواء مثل السكر والأملاح والحمض فى البول والسمن

فماذا تقول إذا كان الدين الإسلامى قد جاء منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف بما هو أدخل فى الإمكان وأقرب إلى التحقيق من طبك الحديث ، فجعلنا نمسك نصف اليوم ونسترسل نصفه . أليس أمر دينك أقرب إلى التطبيق من أمر طبك ؟ ثم لعل فى غيب الطب رأياً جديداً يكون هو والدينُ الإسلامى على أتم اتفاق

٥

الصيام فى نظر الاجتماع

أيها الأخ المفطر . قد مضى لك قولنا فى الصيام وآراء الطب الحديثة فيه . ونحن محدثوك اليوم عن الصيام وعلاقته بالاجتماع ولزومه لكل عضو من هذه الأسرة الأنسانية

أليس من لوازم الاجتماع أن تكون مستعداً لتلبية نداء الوطن فتتقدم للدفاع عنه وتشمّر لحمايته ، أو أن تكون من رجال الأعمال فتكون مثلا رحّالة تَطْوِى المجاهل وتمْعِن فى المفاوز لتكشف لقومك عن كنز من كنوز الأرض أو تجد لهم فيها مُراغَماً [1] يرفّه عنهم من ضيقهم ويوسّع عليهم فى رزقهم . وهل يتم لك شىء من شرف الدفاع عن الوطن أو طلب الخير له إلا بجلادة النفس ورباطة الجأش ووعورة الخلق ؟ ثم انظر هل يتم شىء من هذه لمن لم يأخذ نفسه بكبح جماحها ونَهْنَهَة [2] رغباتها والثبات على مجاذباتها . ثم ارجع البصر هل تقوى على شىء من تلك إذا لم تحاوله فى لقمة تستطيبها ، أو جرعة تستعذبها

أو ليس من لوازم الاجتماع أن تستشعر الرحمة للفقير فتواسيه بالرَّضيخة [3] من مالك ، واللقمة من طعامك ، والهِدْم من ثيابك ؟ وأنَّى لك أن تشعر بشعوره ؟ أو تبكى بدموعه ، أو تتأذى لجوعه . إذا لم تعالج حالاته ولم تشك مثل عِلاّته

---

(١) مكان هجرة (٢) زجر (٣) العطية

إن الطبيب ليعرف وصف الداء ، ويقرأ أثر الدواء ، ولكنه لايحس وخز الألم ، ولا وقع السقَم . ولا يستلذ بيب الشفاء ، فى الأعضاء . وإنما هى ألفاظ مرّتْ بأذنه ثم جرت على لسانه . فهو إن اتفق له أن يمرض بمرض درسه عوداً على بدء دراسة عاطفة وأحس به إحساس وِجدان . . . فليس من سبيل لعطف الواجد على المُعْدم [١] إلا أن يُوَسم بِميسمه ، ويتألم كتألمه ، فحين ذاك نرى أخوين قد عطفتهما الأواصر [٢] ، وانعقدت منهما الخناصر وفى ذلك غاية الغايات من كل نظام سماوىّ أوأرضىّ

(١) الواجد الغنى والمعدم الفقر (٢) جمع آصرة وهى رابطة القرب

٦

سماحة الإسلام

إن للإسلام جلالا فى قلبى تزيده تلك الهَوَادة التى يأخذ بها معتنقيه (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ). ولقد حرّك هذه الرَّوْعة التى له فى قلبى منظر حسن رأيته من (فاعل) وقف فى فِناء بيت تُرفع قواعده بين الأحجار والرمال، وعليه أهدامه التى يشتغل فيها ولا تكاد تُخْفى مِزَقها من أطرافه شيئاً — فى هذا الحال وعلى ذلك الأديم من الأرض وقف هذا العامل بين يدى ربه يصلى. فما كان أجل المظهرَ وما أدله على سماحة ذلك الدين الحنيف

تلك صلاة صحيحة لا يفسدها وقوف المصلى على الصعيد لقوله عليه السلام (جُعلت لى الأرض مسجداً وطَهوراً) ولا يقدح فيها ذلك الرأس العارى، والثوب البالى. لأن المصلى قد التزم ستر ركبتيه إلى سرته

فيأيها المتحرّجون الموسوِسون الذين يتوضئون بقربة ماء، ويكبّرون لصلاة الصبح إلى المساء. ويشمّرون فى مشيهم الثوب، ويحرقون ما وقع عليه ظل الكلب. ويا من رأيكم فى المصافحة أن لامَساس، ونجاسة كل شىء عندكم هى الأساس. ويا من علّقتم المسابح، وذكرتم الله فِعلَ النابح

ويامن قطعتم عمركم فى الأوراد ، تتلونها فى الإصدار والإيراد . يا هؤلاء هَوْنًا هَوْنًا لا تُضْنُوا جسداً ولا تُمْرِهوا [1] عيناً فإن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق أوَلم يبلغكم حديث رسول الله :

رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حبلا ممدوداً بين ساريتين من سوارى المسجد . قال . ما هذا الحبل ؟ قالوا . يا رسول الله فلانة تصلى ماعَقَلَتْ فإذا غُلِبَتْ أَخَذَتْ به . قال . فلتصلِّ ماعقلت فإذا غلبت فلتنم . صدق ورَفَق رسول الله

(١) مرهت العين ابيضت بواطن أجفانها وقد يكون من كثرة البكاء

٧

سماحة الإسلام أيضا

فى صيف سنة ١٩٢٥ كان لى الشرف بإلقاء بعض الدروس الليلية على جماعة من أفاضل العلماء الذين قبلوا الاشتغال بالتعليم الأولىّ . وقد جرى بيننا إذ ذاك ما يصح أن يكون للقارئ درسا فى الدين نافعا

اتفق أنى دخلت حجرة الدراسة بعد غروب الشمس فاسترعى بصرى خلو كثير من المقاعد فلم أبدأ الدرس . وبعد وقت حضر المتخلفون يتسللون فلما استتم جمعهم سألت عن سبب التخلف فتصدى للرد أحدهم قائلا : كنا نصلى المغرب . قلت لكنكم فوّتم وقتا من الدرس وعطّلتم النظام . قال : وما ذاك فى جنب أداء الفريضة . قلت : أليس خوف فوات الدرس عذراً ؟ قال : لم يذكر الفقهاء من الأعذار إلا النوم والسهو . قلت : لعل ذلك على سبيل المثال . قال : هذا حصر لا يتعدى العذرين . قلت : إن لولى الأمر طاعة واتباعُ النظام من طاعته . . . ثم أقفلت باب المناقشة عاجزاً عن إقناع محاورى الفاضل

أما أنت أيها القارئ فإنى أستطيع إقناعك بأن الأعذار لا حد لها وأن منها اتباعَ النظام واشتغال الطبيب بإسعاف مريض أو إجراء عملية جراحية أو انصراف خطيب إلى إفادة سامعيه أو حضور طالب العلم درسه

أو خوفَ فوات القطار أو الانهماكَ فى إطفاء حريق أو كلَّ ما تقيد به المرء وكان فى ذاته خيراً ، وتوقع من إهماله خُسْراً أو ضيراً .

ولعل عذرَىْ السهو والنوم ليسا شيئا بجانب ما ذكرناه من الأمثلة بل إنهما عند تمحيص الرأى يكونان فى بعض الأحوال أدخل فى باب الكسل وأشبهَ أن يكون على المعتذر بهما كلُّ الوِزْر .

وبعد فاعلموا أيها المسلمون أن الله تعالى يقول (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

٨

فى سيدنا الحسين

صلّيتُ الجمعة الماضية بهذا المسجد الطاهر ثم أخذت أطوف ببعض أنحائه فإذا فى كل ناحية واعظ قد استدار به جماعة من المستمعين وهو يقرأ من كتاب بيده ما يزعم أنه أحاديث عن النبى أو أخبار للصالحين أو بيان لفضل رمضان أو وصفٌ لليلة القدر ، أو ذكرٌ لأهوال الحشر وعذاب القبر .

فوقفت أستمع إلى أحدهم فإذا هو يقول والقوم سكوت كأن على رءوسهم الطير : روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى علىّ يوم الجمعة مائة مرة غُفرتْ له خطيئة ثمانين سنةً . وروى عنه أنه قال : من صلى علىّ صلاة تعظيما لحق خلق الله عزّ وجلّ من ذلك القول مَلَكا له جَناح بالمشرق وآخر بالمغرب ورجلاه مغروزتان فى الأرض السابعة وعنقه ملتوية تحت العرش يقول له الله عز وجل صل على عبدى كما صلى على نبيى فما يزال يصلى عليه إلى يوم القيامة . . . فتركته والقوم يترنّحون [١] لهذه الصَّفَقات الرابحة ويَعِجّون [٢] بالصلاة على النبى حتى يتحقق لهم ما حدثهم به واعظهم

ثم غادرته إلى آخر يذكر فى شأن ليلة القدر ما حدثتنا به قديماً عجائز بيوتنا إلى جانب قصة الشاطر محمد والشاطر حسن ! !

ثم انتهيت إلى ثالث يذكر من عذاب القبر أمرا عجيبا يدعى أنه قد

---

(١) يتمايلون (٢) يرفعون أصواتهم .

حدّثه به ثِقَة لا يكذب . قال : إنه كان بقريتهم بخيل لا يؤدى الزكاة فمات . ثم فتحوا قبره بعد أيام لدفن آخر فرأوا رأىَ العين حُفْرَ النار والمكاوى وقطع النقود مُحماة قد كُويت بها أضلعه وجبهته . يذكر ذلك ويجعله مصداقا لقوله تعالى (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ)

وقفت عند هذه الغاية . ثم توجهت إلى القبلة ودعوت الله أن يرسل صاعقة تحرق هذه الكتب وتمحو هذه التُّرَّهات من تلك العقول الضالة حتى يعود الإسلام كما بدأ جميل الوجه أبيض الصحيفة

٩

فى سيدنا الحسين أيضا

بعد أن انتهيت من تطوافى الذى عرفتَ شأنه فى الكلمة السابقة دخلت القبة لزيارة القبر الشريف فقرأت الفاتحة ودعوت بما تعوّدت الدعاء به فى مثل هذا المكان الطاهر ، ثم عرّجت على مقصورة (المخلّفات) فإذا فى حائط من حيطانها خلف زجاج شفاف وتحت سندُس مُوَشّى بالذهب قد حلّت هذه الآثار المباركة . وقد مُدَّ فى صدر المكان مما يلى تلك الآثار نَضَدٌ مستطيل كُسِى بالجوخ الأخضر وجلس وراءه رجل من سَدَنة المسجد رَبْع القامة كبير الوجه أبيضه أسود اللحية شائعها قد تلفع بعَباء وقبض على مِقْرعة يشير بها إلى المخلفات ويقول : مصحف بخط سيدنا عثمان — مصحف بخط سيدنا على — قميص النبى بعرقه مثل المسك — المُكْحُلَة والمِرْوَد — ثلاثَ عشرةَ شعرة من شعره الشريف — قطعة من العصا التى تشرفت بيده الشريفة . ويسكت هنيهة ثم يقول : وسّعوا علينا بحق النبى — الذى له عادة يدفعها بحق النبى — كله فى حب النبى مخلوف — «بعوده» ... فتتابع الواقفون ينفَحونه بما شاء لهم كرمهم وسمحت به مقدرتهم . أما أنا فقد انتحيت ناحية حيث لا يرانى وانتظرت حتى صرف الواقفين بإلحاح شديد ثم استقبل طائفة أخرى فتلا عليهم ما نقلته لك بنصه وفصه .

وبعد ، فما هكذا يفعل بآثار النبوة ! ولا بتلك الوسائل يُستحلّ

الكسب ، ولا يجمُل بوزارة الأوقاف أن تبيح لهؤلاء الوادعين من خدمة قبور الأولياء أن يملئوا أيديَهم من جيوب الزوّار . وإننا لنعتقد أن لهم من رواتبهم وأنصبتهم فى صناديق الصدقات مايجعلهم ملوكا فى زِىّ سُوقَة وأسياداً فى مظاهر خدّام . إنهم قد بَشِموا [1] واتسعت كروشهم ، وامتلأت بالسمن أجسامهم ، وطَفَحَتْ بالدَّعَة وخلو البال وجوههم ، وقست على غير المتصدقين عليهم ألفاظهم وعِصِيّهم ، فهم فيما يتخيلون وتَخال من دَلَّهم وشكلهم يَعتبرون هذه المزارات ضِياعهم المُغِلَّة ، وهؤلاء الزائرين جُبَاتَهم الأشقياء . فلتنظر وزارة الأوقاف فإن استطاعت أن تَحْرِم هؤلاء من أعْطِيَاتهم فى الصدقات وأن تصرف محاصيل تلك الصناديق فى وجوه من البرّ فقد استطاعت أن تصلح من نفوسهم وتعدِل بينهم وبين خدَمة المساجد الأخرى .

أما تلك الشحاذة باسم الأولياء ومخلّفات الأنبياء فهى مانرى وزارة الأوقاف فى حِلّ من الإسراع بمنعه .

(١) أتخموا

١٠

يسيئون إلى الدين

أرى فى القلم نزوعاً إلى التعجيل بسرد ألفاظ السب والتجهيل لذلك الرجل الذى لم يعرف القارئ قصته بعدُ. فمهلا أيها القلم حتى نقدّمه إلى القراء ثم صُبَّ عليه ما شئت من سب ولعن.

رَوَى لى زميلى الفاضل الدكتور أبو زيد الحناوىّ وهو مَن لا أقدَح فى صدقه، ولا أتّهم دُعابته بالعدوان على الحقائق، قال: دخلت دار الكتب فى يوم من هذا الأسبوع فالتقيت بإيطالى — كنت عرفته بإيطاليا — ومعه زوجه، فدار بيننا من الحديث ما يدور بين الإخوان إذا التقوا بعد فرقة، وفيما نحن فى حديثنا إذ أقبل مطربش ظهر من حاله أنه كان معهما منذ حين ثم جاء لوداعهما، فسلّم على الإيطالى بيده ثم وضعها فى جيب ردائه وقدمها للسيدة للمصافحة معتذراً بأنه متوضئ!! فتزايلتْ السيدة فى مكانها ثم ثبتت حائرة فى أمر هذا الإنسان الذى انقلب نِسْناسا، والعاقل الذى آض مهووسا، والريّض [1] الذى غدا شَمُوسا [2]. ولا تسل عما اختلج فى نفسها إذ ذاك عن هذا المصرىّ المسلم، بل عن المصريين جميعاً والمسلمين أجمعين. فقد عوّدَنا هؤلاء الأوربيون أن يأخذوا الأمة بجريرة واحد منها، وأن يرسلوا أعنّة الخيال فيما يكون ولا يكون من فَعلة واحدة يشاهدونها.

أما أنت أيها المتوضئ يا صاحب السماجة والفَدامة [3]، ويا رب الثِّقَل

---

(١) السهل القياد (٢) ضد الريض (٣) ثقل الظل مع العى في الكلام

والبَرَد ، ويا دولة الجَهامة والشَناءة [١] ويا أشأم على دينك من البسوس ، وأنخر فى عظامه من السوس ؟ فقد أسأت وامتهنت شعائر دينك حين جعلتها سخرية لمن لم يقِفوا على كُنهها ولم يتذوَّقوا حكمتها . على أنى لا أستطيع أن أصفك بالتمسك بأهداب الدين ، وإلا فما الذى وَقَفك مع هذه الأجنبية سافرة الوجه وأسمعك صوتها . لقد كان من الممكن أن تتم حَلْقة المنهيات وتتبع مألوف العادة فتسلّم عليها بيدك ثم تتوضأ ، على أنك لو كنت تفقَّهت فى الدين لعرفت أن تجديد الوضوء مستحب لكل صلاة

(١) الجهامة والشناءة القبح

١١

القرآن فى المحافل

لعلك أيها القارىء قد حضرت حفلة عُرس أو ليلة مأتم أو مجلساً من المجالس التى يُتلى فيها القرآن الكريم فرأيت على المِنصّة قارئاً من أولئك الذين هم آفة القرآن وأنصار الشيطان . يتهيئون للقراءة ، لا بالاستعاذة والبراءة . بل بكثرة المخط والتفل ، وشدة الحرص على النعل ، يرفعونها فى أوجه السامعين ، ثم يستوثقون منها باليمين وربما كانت من سقط المتاع حتى لا تباع . فإذا بدأ رأيت وجهاً ينبسط وينقبض ، وكفًّا يرتفع وينخفض وصُدْغاً يُصفع ، وأنفاً يُقرع ، وكأنما يُنزع ، وأذناً يجعل فيها الإصبع ، وكأنه لهول ما يسمع ، وإذا لم يشقّ على بصرك المنظر ورأيت القارىء عند كل وقفة رأيت نَفَساً منقطعاً ، ووجهاً مُمْتَقِعاً [١] . وأوداجاً منفوخة ، وحِلقة ممسوخة . ومخنوقاً يجود بالحَوْباء [٢] ، وقد انقطع منه الرجاء

أما القراءة فحسبك أنها قراءة جاهل لمعانى ما يقول . فتهويل ، فى مقام التسهيل . وتهوين ، عند ذكر المنافقين . وتطريب ، فى آيات التعذيب ونشيج [٣] ، فى قراءة (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) . وتشكيك وترديد ، فى آيات التوحيد . وتهكم ، عند قراءة (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ)

---

(١) متغيراً (٢) بقية الروح (٣) صوت البكاء

وقصارى القول أنى لم أر قوما انصرفوا عن فهم ما يقولون كما انصرف المتغنون بالقرآن عن تعرُّف معانيه مع أن القرآن مرتزقهم الوحيد وهم إلى جانب ذلك أفرغ الناس بالا ، لو سهر أحدهم أربع ليال فى الشهر لكفاه دخلها مؤونة السعى والكد . فما بالهم لا يهتمون بتكميل أنفسهم والتفقه فى دينهم ، والتخلّى عن مرذول عاداتهم ، والاجتهاد فى تحسين أدائهم . حتى تتجلى معانى ما يقرءون من الآيات البينات فيتذكر الغافل ، ويتعلم الجاهل . ولكنهم قوم شغلهم اللعب بالسُبَح وقضاء ساعات النهار أمام حوانيت الزيّاتين والخيّاطين

١٢

القرآن فى المحافل أيضا

قد وصفنا فى كلمتنا السابقة ما يكون من شأن عامة القرّاء للقرآن . وأولئك هم الذين لا يعرفون إلا قراءة واحدة هى قراءة حَفْص المشهورةُ بمصر وأكثرِ بلاد الإسلام

أما خاصة القراء — جنّبك الله سماعهم وكفاك عناءهم — فهم الذين يقرءون بالسَبْع أو العشر أو الأربعَ عشرةَ قراءة . . . حقاً إنّ القرآن قد روى بهذه الروايات وقرأها النبى صلى الله عليه وسلم فهى حق لا شك فيه وإن كان فيها القوىّ والضعيف والفاضل والمفضول . وقد شُرعتْ تخفيفاً على الناس لتعدد لهَجات العرب ، إذ لم يكن يسهل عليهم الأداء بوجه واحد . ونحن نرى أن أكثر هذه القراءات لا حاجة إليه اليوم لأن لغاتها التى تنطبق عليها قد دُثِرت ومات أهلها . ولكننا لا نرى بأساً من تعلمها وتفهمها وأن ينفرد منا جماعة بحِذْقها لتكون علْماً وتاريخاً يمثّل اللهَجاتِ العربيةَ المختلفةَ ولنعرف منها مآخذ الأحكام الدينية التى كان لاختلاف القراءات أثر ظاهر فى اختلافها . فأما أنْ يتناول القراء هذه القراءات فى الحفلات العامة بين يدى الغبىّ والفهيم ، والحقير والعظيم ، فذلك امتهان للقرآن وتضييع لما له من جلال . وما لطالب العظة؟ نكلفه سماع تلك المدود والمطوط . وهذا التفخيم والترقيق . وهذه الإمالة والإزالة ، وذلك الوصل والقطع ، والتفريق والجمع . وقراؤنا

أخفتَ الله أصواتهم يبالغون ويغالُون ، ويَزيدون ويَنقصون. جرياً مع النغم البارد ، المنخفض منه والصاعد . حتى أصبحت قراءتهم ضُحْكة الضاحك . ولأنهم جازاهم الله قد علموا أن جمع القراءات على مثل ما هم عليه ينافى الوقار ، وتضيع معه العظة والاعتبار ، قصروه على الأفراح ، والليالى الملاح .

وقد مضت مدة والقراء يرتكبون هذا المنكر ، حتى استُفتى شيخ المقارئ فأنكر . ثم قام ابنه الشيخ أبو بكر الحسينى من أفاضل علماء الأزهر فألّف كتاباً نقل فيه النصوص التى تحرّم جمع القراءات إلا فى مقام التعليم والتلقين . والغريب أن هذه الضَّجّة تقوم حول كتاب الله ولا يعلم الناس من أمرها شيئاً . فهل أَهملت الصحف ؟ أم هل قصّر العلماء فى تبليغها حتى تؤذّن [1] فى الناس .

وأنا اليوم بعد أن قرأت كتاب (الآيات البينات ، فى حكم جمع القراءات) لو حضرت مجلساً يرتكب فيه القراء هذا المنكر لأسكتّ القارئ وكنت بذلك أُبطل بدعة وأُميت ضلالة

(١) تخبرهم

١٣

ساعة بين كتب الفقه

لى غرام بمطالعة كتب الفقه ، فإن فيها إلى جانب الفائدة الدينية استمتاعاً بذلك الخيال الذى يهيم الفقهاء فى أوديته بفرض مالا يكون وتوقّع مالا يحصل . وهو خيال ليس خيال الشعراء بجانبه شيئاً مذكوراً ، ولا أمراً خطيراً ، لأن الشاعر فى غالب أمره لايزيد على أن يبالغ فى تصوير الحقيقة بما لايخرج عن دائرة الإمكان ، ولا ينكره العيان . أما علماء الدين أجزل الله ثوابهم فهم يتغلغلون فى الخيال ، ويُغرقون فى المبالغة حتى ينتهوا إلى الإحالة. وإذا أعياك أن تعدّ من كلام الشعراء نظائر كثيرة لقول أبى نوَاس .

وأَخفتَ أَهْلَ الشّرْكِ حتى إنّه لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

فإنك واجد فى كل صفحة من كتب اللغة أمثلة هى أدخل فى الغرابة وأقرب إلى الاستحالة . وأنا أنقُل للقارىء الكريم ما علِق بالذاكرة من مطالعة اليوم

(فى باب الطلاق) — كل ما كان من مادة طلق ولو بالتهجى أو بالألفاظ المصحّفة كتلاق وتلاك وتلاغ وطال (فأن القاف حذفت ترخيما) يقع به الطلاق — ولو قال لامرأته رأسك طالق أو نصفك أو ثلثك أو ربعك ، طَلُقَتْ — ولو قال لزوجاته الأربع أوزّع بينكن تطليقة لكل ربعها وقع على كل منهن طلقة واحدة — ولو قال لزوجته أنت طالق ثلاثة أنصاف تطليقتين يقع ثلاث طلقات — ولو قال ثلاثة أنصاف تطليقة تقع ثنتان — ولو قال أنت

طالق نصف تطليقة وربع تطليقة وخمس تطليقة وقع ثلاث طلقات — ولو قال نصف تطليقة وربعها وخمسها وقعت واحدة — ولو قال لها أنت طالق فى اليوم غداً أو غداً فى اليوم اعتبر الوقت الذى نطق به أولا — ولو قال أنت طالق إن لم أطلقك وقع الطلاق فى آخر ساعة من حياته أوحياتها — ولو قال أنت طالق إذا لم أطلقك لا يقع شىء

(فى باب الصلاة) — إذا اجتمع قوم للصلاة يقدّم للامامة الأعلمُ ثم الأحسن قراءة ثم الأسن ثم الأحسن خلقاً ثم الأجمل خلقة ثم الأشرف نسباً ثم الأحسن صوتاً ثم الأحسن زوجة ثم الأكبر رأساً ثم...

(فى باب البيع) — لايجوز بيع العاج ولا الأوانى المتخذة منه ولا بيع العود والمزامير ولا بيع الصور المصنوعة من الطين التى تباع للأطفال فى الأعياد. وكسرها واجب شرعاً!!

١٤

ساعة بين كتب الحديث

كذلك لى نظرات فى كتب الحديث أتلمّس فيها حكمة النبوة وأستشف منها صدق الجهاد فى إعلاء شأن الدين ، وتثبيت دعائم اليقين . أرى فيها عقلاً بشرياً نشأ فى الصحْراء ، حيث شَظَفُ العيش بل الشقاء ، فى أيام الجهالة الجَهْلاء ، والفتن العمياء . قام يدبّر لهذا العالَم الأمر فيُحكم التدبير ، ويسوسه فيحسن السياسة . وينظر إلى المستقبل البعيد وكأنّه كان ، فيصف منه الزمان والمكان . . حقاً إنه لمُلهَمٌ وإن الروح الأمين ليشُدُّ أَزْره ، ويتولى أمره . لهذا وللبلاغة العربية فى أبهى من الحُلل ، وألذ من النَهَل [1] . أردد الطرف فى كتب الحديث

ولكن قوماً لا يتركون أديماً صحيحاً قد اعتدوا على هذا النور الباهر يحاولون إطفاءه بالأفواه ، ويأبى الله . تقوّلوا على محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يقل وادعوا ما لم يكن . وأبلَوْا فى هذا الافتراء ، كل بلاء . فشغلوا رجال الدين بتزييف هذا البَهْرَج [2] فكان من عملهم علم الحديث . وإليك طائفةً مما زيَّفوه حتى لا يدخل عليك الشك فيها :

أَخِرّوهن من حيث أخَّرهن الله (يعنى النساء) — أبو حنيفة سراج أمّتى — إذا عطِس الرجل عند الحديث فهو صدق — اشتكيتُ عينى فقال لى

---

(١) النهل أول الشرب ويضرب به المثل في اللذة والاستمتاع (٢) البهرج الباطل

جبريل انظر فى المصحف فإنى اشتكيتُ عينى فشكوت إلى ربى فقال انظر فى المصحف — أكل السمك يُذهب الحسد — أكل الهريسة يقوّى الظهر — أنا مدينة العلم وعلىّ بابها — أنفق ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب — إن الله طهّر قوماً بالصلع فى رءوسهم وإن علياً لأوّلهم — أحسن ما أُجرتم عليه كتاب الله — اذكروا محاسن موتاكم وكُفّوا عن مساوئهم — من التواضع أن يشرب الرجل سُؤْر أخيه ومن شرب سؤر أخيه ابتغاء وجه الله تعالى رُفِعَتْ له سبعون درجة ومُحيتْ عنه سبعون خطيئة وكُتب له سبعون حسنة — ربيع أُمّتى العنب والبِطيخ — لو تعلم أُمّتى ما لهم فى الحُلْبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً — اتركوا الترك ما تركوكم — من لم يكن عنده صدقة فليلعن اليهود فأنها صدقة — تختموا بالياقوت فأنه ينفى الفقر

١٥

حنبلى !!

مَنْ مِنَّا لايذكر بجانب هذا الاسم شدةَ التحرّج والتأثّم والتضييق الآخذ بالخناق ، البالغ بالروح إلى التّراق؟ . وما دخل علينا هذا الزعم إلاّ من ناحية ظننا أن أحمد بن حَنْبَل رضى الله عنه لم يجعل للهَوادة سبيلا فى مذهبه فصيَّر طريق الله حَسَكا وسَعْدانا[1]

والحق أن الشهرة من الحظ فقد طالما رأينا من اشتهر باللين وهو شديد ، وعرف بالعدل وهو جبار عنيد ، ووُسم بالشجاعة وهو رِعْديد . ولقد جرت هذه الحال على كل شىء حتى لقد قال الجاحظ : «فكم من بيت شعر قد سار وأجود منه مقيم فى بطون الدفاتر ، لاتزيده الأيام إلا خمولا . كما لاتزيد الذى دونه إلا شهرةً ورفعة» . .

ذلك هو الحظ الذى أساء إلى الأمام ابن حنبل فى نظر كثير من المسلمين فتحاشوا مذهبه لما توهموا فيه من شدة وما قدّروا للآخذ به من عناء . وقد أُتيح لى أن أنظر فى كتب المذهب فلم أجد فيما وقع عليه بصرى تلك الصورة التى نتخيلها ، بل هو يجرى على رسم بقية المذاهب إذا كان فى بعض مسائله شدة كان إلى جانبها لين فى غيرها . وإلى القارىء أمثلة من ذلك اللين الذى لم يخطر على بالنا أن يحويه مذهب هذا الإمام الجليل

كل ما يؤكل لحمه ولم يكن أكثر علفه النجاسة فبوله وروثه وكل

(١) الحسك والسعدان نوعان من شجر الشوك

ما يخرج منه طاهر — وما لا يؤكل لحمه مما هو فى قدر الهرة فى الخلقة أو دونها كالنِّمس والنِّسْناس فكل ذلك منه طاهر أيضاً — وبول الغلام الذى لم يأكل الطعام بشهيّة يكفى فى تطهير ما يقع عليه أن يُنْضَح بالماء — وسن الفيل — وهو نجس عند الشافعى على أىّ حال — طاهر عند الإمام أحمد إذا أُخذ والفيل حىّ — وجمع صلاتى الظهر والعصر أو المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير لا يجيزه الشافعى إلا للمسافر، ويشترط الإمام مالك أن يكون السفر براً لا بحراً وأن يكون لإدراك أمر مُهِمّ وفى غير معصية. أما الإمام أحمد فيجيزه للمسافر وللمريض المقيم وللمرضع وللعاجز عن معرفة الوقت كالأعمى وللخائف على نفسه أو ماله أو حَرَمه

أما تلك المسألة التى طارت بها شهرة هذا المذهب فى الشدة فلعلها مسألة فساد الصلاة إذا مر الكلب الأسود بين يدى المصلى لقوله عليه السلام: الكلب الأسود البهيم شيطان إذا مر بين يدى المصلِّى فسدت صلاته

١٦

توكلت على الله

لقد ساء فهمنا لكلمات جاء بها الإسلام، كالتوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر، فجنينا من سوء فهمنا خطأ فى الاعتقاد، وسقوطاً فى الهمة، وضعَة فى الحال، وفشلا فى الأعمال. وأسأنا إلى الدين فيما تجب به المباهاة، وشوَّهنا منه ما جمَّله به الله.

فالتوكل على الله كلمة حقٍ يراد بها اليوم باطل، يقولها منا كل غافل عن النظام البديع الذى بَنَى عليه الله تعالى هذا الكون، فربط الأسباب بمسبَّباتها، وعلّق النتائج على مقدماتها، كما يقولها كل كسلان قد خارت قوته، وسقطت مروءته. فأغلق عليه بابه، وقاسى من الطَّوَى [1] عذابه. ونسِى قوله تعالى (فامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ)

فأما التوكل الذى فهمه سلفنا الصالح وجرَوا عليه فى أمر معاشهم ومعادهم وكانت من آثاره تلك الفتوح المبينة والدول القوية فهو أن تعتقد أن لكل شىء أسباباً لا يتمّ إلا بتحقيقها، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يُساق عفواً لقاعد عنه، مبطل لوسائله، معطِّل لأسبابه. لأن ذلك عبث يتنزه الله عن الرضا بوقوعه فى ملكه. ثم تعتقد إلى جانب ذلك أن هذه الأسباب كثيرة يظهر لك منها شىء ويختص الله بما يدق عن إدراكك ويتعاظم على قوتك وحيلتك ...

---

(١) عدم الأكل

فمعنى توكلك هو أن تستقصى ما تستطيع من الأسباب ، وتهيئ مايصل إليه علمك ، ويدلك عليه اختبارك . غيرَ مُدَّخر وُسْعاً ، ولا مُفَرِّط فى ذَريعة [1] . ثم تستعين اللهَ فيما خفِى عليك ، وتبتهل إليه فى المعونة على النجاح . فأذا أدّيتَ ما استطعت وأخلصت النية فى الاستعانة على مالم تستطع ، فقد توكلت على الله حق توكله ، وكنت جديراً أن يَكْفُل لك النجاح ويرزقك كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً [2] ، وتروح بِطاناً [3]

(١) جمع خميص بمعنى ضامر البطن . والمراد جوعى (٢) جمع بطين بمعنى عظيم البطن . والمراد شبعى

١٧

« وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ »

(قرآن كريم)

كثير من الناس يفهمون هذه الآية الكريمة فهماً لا يليق بالأدب الواجب فى حق الله فهم يزعمون أن الغاية التى أرادها سبحانه من خلق الناس هى أن يستمتع بخشوعهم ويُعْجَب بعبوديتهم ، فهم لم يترفعوا بمولاهم عن درجة البشر فى الاستمتاع والتلهى والمباهاة بالاستعباد . حاشا لله أن يريد بخلق الناس عبثاً كهذا !!

والحق الذى يراد من الآية هو أنه خلق الناس فى هذه الدنيا لأغراض شتّى وإرادات سامية ، ليكون لهم فى الحياة شؤون وأعمال ؛ من حَرْث ونَسْل وتجارة وصناعة وتعليم وتهذيب وإثارة لكنوز الأرض وتنعم بخيراتها . ومن بين هذه الشؤون عبادة ربهم التى تكفُل لهم السعادة وتُجنِّبهم الشقاوة وتجعلهم إخواناً متحابّين، وشركاء متعاونين .

وشأن البليغ إذا كان من أغراضه غرض أظهر أو من أسبابه سبب أشرف أن يقصُر حكمه عليه ويظهر فى العبارة أنه هو المقصود لا غيره . يفعل ذلك مبالغة فى بيان فضله وتأكيداً لجليل أثره .

ففى الآية لما كانت العبادة هى أشرف شؤون الخلق وأهم أعمالهم

فى حياتهم لما يتصل بها من سعادتهم وشقاوتهم لم يذكر ماسواها فى القول وخصها بالعلة تشريفاً لقدرها وتفضيلا لمكانها .

أترى لو أن أباً قال لابنه فى مقام الحث على الفضيلة والحمل على مكارم الأخلاق . ماطلبتُ أن يكون لى أبناء إلاّ لأراهم مهذبين مؤدبين . فهل ترى أن هذا الأب لم يرد من ابنه أن يتخذه زينة حياته ، وظهيره فى مُلِمَّاته ، وذِكره بعد مماته . لا ولكنه أغفل كل هذه المقاصد فى قوله ليفهمه أن الأدب هو أسمى هذه الغايات ، وأول تلك الأرادات

١٨

الدعاء

رأيت قوما ينكرون أمر الدعاء، ويدّعون أنه لا أثر له فى إزالة الكروب. وغفران الذنوب. ويستمسكون بأن المراد به فى كل ماورد من آى القرآن الكريم هو العبادة لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء العبادة وتلا قوله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

وقد تتبعنا ماورد من آى الكتاب فى ذلك فوجدناه قسمين أحدهما يدل على أن المراد بالدعاء العبادة كالآية السابقة، والآخر صريح فى أنه مثل ما يكون منا حين يحزبنا خطب ويضيق أمامنا سبيل كقوله تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَظْلُومٌ فَانْتَصِرْ) وقوله على لسان يحيى عليه السلام (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) وقوله على لسانه أيضاً (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

هذا إلى أن الشرع الشريف قد سن الدعاء فى كثير من الأحوال كقنوت العشاء أو الصبح وصلاة الاستسقاء والجنازة وغيرها

كذلك نجد فى القرآن نفسه أن كثيراً من الأنبياء دعوا ربهم فاستجاب. كقوله تعالى (يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ

قَبْلُ سَمِيًّا) بعد دعائه السابق فى الآية قبلها . كذلك كان نبينا عليه الصلاة والسلام يدعو ربه بدعوات قد أُثِرَتْ عنه كما كان يتوجَّه إليه فى الأزمات التى صادفها فى حرب المشركين فكان الله يستجيب دعاءه ، ويحقِّق رجاءه

فلا ينبغى لك أن يخالطك الشك فى نفع الدعاء وأن الله يفرِّج به الهمّ (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) ويحقق الرغائب ، وينجّى من المصائب (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ)

غير أنه يجب أن نعتقد أن لإجابة الدعاء شروطاً يكون الدعاء بدونها لغواً لا يقدّم ولا يؤخر ولا تنفع به الوسيلة ولا تُغنى القربى . وأهم هذه الشروط وألزمها أن يكون العبد تائباً إلى ربه مؤدياً حقوقه رادًّا للمظالم ، كافًّا عن الأذى قد سلم الناس من يده ولسانه وأخلص لربه فى السر والعلانية فأما من لم يبرأ إلى الله من الذنوب ولم يقدِّم الطاعة فأنه مهما بُحّ صوته ، أو علا نحيبه أو كثر تضرّعه فليس إلا مطروداً من رحمة الله . . . قيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقد أجهدنا القحط . فقال : إنكم تستبطئون المطر ، وأنا أستبطئ الحجارة ! !

١٩

أمريكا والإسلام

إننا معاشر المسلمين لمدينون لأمريكا بالشكر على ماتقوم به غير عامدة من الدعوة إلى ديننا . وهذه مسألة تحريم الخمر لايزال قانونها سيفا مسلولا على رقاب الناس هناك ، يُرْهِق أهل الترف والخلاعة والفجور ، وتجنى منه الأخلاق والصحة والأمن والثروة أكبر ربح

واليوم أضافت أمريكا من حسناتها إلى الإسلام حسنة جديدة . إذ قامت فأبطلت ضلالة ، وأماتت بدعة كان دارون صاحب مذهب النشوء والارتقاء قد ابتدعها فدان بها من دان وفُتِنَ بها من فُتِنَ

انتهى دارون من بحثه الطويل الضافى الذيول إلى أنَّ أصل الإنسان قرد ، وقد ذاعت لهذا الرأى شهرة عجيبة حتى أصبح أصلا مقرراً من أصول العلم وأُلّفت فيه الكتب . ومضى علينا وقت كان من طرائف الحديث ولذائذ السمر ومن سِيما الحَذاقة والكِياسة أن يجيد أحدنا البرهنة على هذه الضلالة ويُنافح [1] عن تلك البدعة . ولا أستطيع أن أُثبت أو أَنفى كون هذه النظرية من مناهج التعليم بمدارسنا العليا ! ! ولكنى على كل حال أقول إن كثيراً منا يدينون بها ويناضلون عنها مع منافاتها لأحكام ديننا

---

(١) يدافع

واليوم قرأنا فى أخبار أمريكا أنها قامت تحارب هذا الرأى ، فبعض ولاياتها مَحَتْه من كتبها ودوائر معارفها ، وولاية تنيس حاكمت الأستاذ « سكوت » لأنه لقّن تلاميذه هذه النظرية ، وولاية المسيسبى نَشِطتْ فسنّت قانوناً يعاقب المجاهر بهذا الرأى من أساتذة المدارس بغرامة مائة جنيه والفصل من الوظيفة

فبَخٍ بَخٍ لكِ يا أمريكا ! ! لقد كانت نهاية المدنية وقصارى العلم عندك أن تُقرّى فضل الإسلام فى أمور لَمَسْتِ منها الإفساد للنظام والإضرار بالمجتمع فكيف بك لو اطلعت من سائر أموره على ما يزيِّن الدنيا فيجعلها جنة ويكفُل فيها النعيم الشامل والخير المتواصل

٢٠

مشايخ الطرق

بلغَنا أن ما قلناه فى خدَمة الأضرحة وقراء القرآن قد ساءهم جداً وأنهم نَذِروا [١] بنا وتوعّدونا . ونحن أمام غضبهم نرى أنفسنا قريرى العين لأن وجهتنا فى النقد لم تكن لإطفاء حقد أو تشفّ من خَصم ، بل كان رجاؤنا أن يصعد إلى الله مع صيامنا نية حسنة يمكن أن يكون لها أثر صالح . . . فما للناس نكتب . ولا لغِلّ فى الصدور نشهّر . لذلك نمضى فى عزيمتنا متممين ما أخذنا فيه ، ما لم تحل إرادة فوق إرادتنا ، والله على ما نقول وكيل

* * *

إذا قلت فى مشايخ الطرق فقطع الله لسانى وأَشَلّ يمينى إن أردت هؤلاء الأفذاذ [٢] أهلَ الوَرَع والدين ، ونجوم الهدى واليقين ، الذين هم رحمة الله تمشى بيننا ، ونور نبيه يكمل إيماننا

فأما من أَتقرب إلى الله بإذاعة مساوئهم وأُسبّحه بالتشهير بهم ، وأرانى داعياً إلى الحق إذا نصحت بهجرهم وحملت الناس على مطاردتهم . فهم الذين تعرف فى وجوههم نُضرة النعيم ، وليس لهم من وسائل الكسب حقير ولا

---

(١) نذر « كفرح » القوم بالعدو علموا به فحذروه واستعدوا له

(٢) جمع فذ هو الظاهر الفضل

جسيم . يقضون عامهم فى سُبات عميق فلا يعملون إلا فى المواسم ، ولا يسعَوْن إلا إلى الولائم ، ولا يجدّ منهم الجِدّ ، إلا فى كل مولد . ولا يمرون بالبلاد ، إلا أيام الحصاد . حديثهم بخُل وجاد ، وفلان كثير الإيراد . . . وإقامتهم فى المدن الكبرى لتلقى القادمين وتشييع المسافرين . عرفهم خدام القهاوى ذباباً لا يطرد ، وكابوساً لا تشرّد . واتخذهم أصحاب الفنادق وسطاء ، لجلب النزلاء . لا يتجاوزون أن يكونوا فى شوارع العواصم ، مطوفين لكل قادم . يدلونه على ما هداهم إليه عَسَسُهم (١) وأوقعهم فى تسكّعهم (٢)

هؤلاء حقاً مشايخ « طرق » ولكنها طرق القاهرة كعهد الدين ، أو طرق الاستيلاء على كسب العاملين

(١) العس طواف الليل (٢) التسكع مشى من ليس له وجهة يقصدها

٢١

متنبىء جديد

لست أتحدث عن رجل يبهر الأبصار بعجيب ما يأتى ، ويحير الألباب فى فهم ما يخيّل . ولا أحدثك عن شاعر — كالذى قالوا — يقيد الأسماع بسحر بيانه ، ويستغوى السذّج بمكذوب قرآنه . . . لا عن هذا أو ذاك ، ولكن عن شيخ يؤم الناس فى مسجد تديره وزارة الأوقاف فى أحد أحياء القاهرة الآهلة . شيخ يملأ الغرور فراغ رأسه الصغير فى جسمه الضئيل فهو فى درسه بعد المغرب لا يزال يندُب الدين ، ويبكى حظ المسلمين . ويهزأ بكل ما يرى من أحوال الناس فى عبادتهم . فالأذان فى رأيه غير شرعى والصلاة غير منعقدة والصوم غير مقبول . وقد مكّنه الشيطان من قوم هم شرٌّ مَن عبد الله لأنهم يجمعون مع الجهل ، خفة العقل . ويضيفون إلى الحماقة ، شدة الصفاقة أولئك هم نُفاية من النوبيين تعطلوا لسوء أخلاقهم ، واختلال أعمالهم . وغباوة أفهامهم ، وعُرامهم على أسيادهم . وجد فيهم هذا الشيخ دمنة سَبِخَة غرس فيها ضلالته فأنبتت شراً وعَنَتاً وإهانة وعدواناً وأموراً كثيرة يتعرض لها كل من ينكر على هذا الشيخ ما فَتَن به الناس وخرق الإجماع .

ولقد جرى ذلك علىّ فاحتملته فى سبيل الله . وكان قد جرى قبلى على

العالم الجليل والورع المعروف الشيخ الزنكلونى فإنه صلّى مرة بهذه الأشنان[1] البالية أو الزّقاق المملوءة هواء[2] فلم تعجبهم صلاته لأنها غير ما علّمهم شيخهم وصال عليه عبد منهم يخطئه فى الدين الذى هو من أئمته ، والأمر الذى هو من أركان بِنْيته . حتى لقد اضطر فضيلة الأستاذ أن يجره إلى الشرطة ليلقى جزاء جرأته . وما هى بواحدة المرّات التى تدخلت فيها الشرطة بين هؤلاء الأغبياء وكل طارئ تسوقه قدماه إلى هذا المسجد .

أما إمام هذا المسجد الذى يتقاضى من وزارة الأوقاف — على غير علمها — أجر هذا الضلال ورشوة هذه الفتنة التى يوقد نارها بين المسلمين فمن رأيه أن الأذان أربع تكبيرات لا ثنتان ، وأن ركعات التراويح ليست بعشرين بل هى ثمان . وأن صلاة الجمعة إذا لم يقض فى خطبتها ساعة وفى ركعتيها أخرى فليست بجمعة . ويتحدث بعض الناس أنه صلاها فى مسجد السيدة زينب ثم وصل إلى جامع جركس ماشياً فأذا بالامام لم ينته بعد من خطبته . أما بقية الفروض من الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء فأقسم بالله أنى عددت أحدى وعشرين تسبيحة والشيخ ساجد لم يرفع رأسه حتى خُيّل إلى أنه قد مات ، أو هجم عليه السبات . فما رأى وزارة الأوقاف وقد تحاشى كل ذى عمل أو صاحب حاجة أو عاهة أن يصلى فى هذا المسجد ، وصار جيرانه الأدنَون يتكلفون الذهاب إلى المساجد البعيدة حتى لا تسرق أمتعتهم ، وتنهب حوانيتهم ، فى هذه الغيبة التى تطول ، والرحلة التى ليس منها قفول .

---

(١) جمع شن وهو جلد القربة ويشبه السود بالأشنان تحقيراً لسوادهم

(٢) الزقاق جمع زق وهو القربة ويكنى بالزق المملوء هواء عن الأسود الجاهل

إن كان الشيخ على حق فقد وجب أن يأثم جميع أئمة المساجد ما عداه ، وإن كان على باطل فلم هذه الهَوادة فى دين الله ؟

إنها لفتنة وإننا لا نزال نتوقع من هؤلاء الجهلة أشياع الشيطان ، وأعداء الديّان . أن يخرجوا لتمزيق الصفوف فى كل مسجد لا يدين إمامه بما اعتقدوا أنه الحق وما سواه الباطل . فإن شاءت وزارة الأوقاف إلا أن تترك هذا الشيخ يستبد بالدين ويشرع لنفسه ما لم يَرِدْ عن الأئمة الأربعة الذين يجرى على مذاهبهم العمل عند عامة المسلمين فَلْتُطوِّقْ هذا المسجد بسياج من شرطها حتى لا تتعداه الفتنة إلى غيره

٢٢

التناقض

إنى أمقتُ ذلك الأسلوب الذى ينهَجه بعض الكتاب للإشادة بذكر أنفسهم فينقلون للقراء ما وصل إليهم من رسائل التشجيع والتحبيذ . ولكنى أرى نفسى اليوم مضطراً إلى ركوب هذا المركب . ولعلى معذور عند القراء إذا عرفوا الأسباب التى حفزتنى [1] إلى ذلك .

كان من كلماتنا كلمة فى نقد الوعاظ وما يأتون من أباطيل يزعمون أنها أحاديث ، وقد نتج من هذه الكلمة أمران متناقضان أما أولهما فهو هذا الخطاب

حضرة . . .

وبعد فقد اطلعت على مقالاتك تحت عنوان « كلمات صائم » على صفحات البلاغ الأغر فإذا هى مقالات سديدة تنبئ عن غيرة شديدة على الدين ، وقد سررت جداً منها خصوصاً فيما يتعلق بانتقاد الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التى يذكرها الوعاظ فى دروسهم . تلك الأحاديث التى لو تمسك بها الناس لكانت سبباً فى هدم الدين مثل (وهنا نقل الكاتب الحديثين اللذين وردا فى كلمتنا (٨)) . ويا للأسف لقد ابتلى الدين الحنيف من قديم الزمان بأناس تقوّلوا عليه كثيراً ونسبوا إلى صاحب الشرع الحكيم صلوات

---

(١) حفزه إلى الأمر اضطره إليه

الله عليه أشياء لم يفعلها وأحاديث لم يقلها فلا حول ولا قوة إلا بالله

محمود عنبر

مدير معهد طهطا العلمى الدينى

أما الأمر الآخر فهو ذلك المقال الذى نشر فى بلاغ الاثنين ١٥ رمضان وفيه يتهمنا الكاتب بالجهل لأننا لم تصح عندنا هذه الأحاديث والمقال بإمضاء (سيد محمد راضى بينها)

أليس هذا أيها القارىء تناقضاً (ذم ومدح وذات الشىء واحدة) . ولكن قد تبين الرشد من الغىّ لأن صاحب الخطاب صاحب فضيلة من كبار علماء الأزهر الشريف ومن ذوى الغيرة على الدين يحمى حوزته ، ويقى بيضته . أما (سيد محمد راضى بينها) فإننا لم نعرف فصيلته ، وهو لم يعرّفنا عن نفسه بأكثر من انتسابه إلى بِنها ، وإن أهل بِنها لكثير ، أليس فيهم الزيات والخياط وضارب الرمل وكاتب الأحجبة وفقيه الكتاب أو عريفه

ألاَ إنك يا سيد محمد لا تزال نكرة من النكرات وإن بِنها وحدها لا تكفى لأن يتعرف بها رجل يتعرض للكلام فى الدين

وقد بدا لنا أن نلوم البلاغ لقبوله مثل هذا الكلام من مثل هذا الكاتب ولكننا عدنا فتذكرنا أنه شديد التمسك بحرية الرأى فلتكن له حريته وليكن لنا الدفاع عن الحق

٢٣

ولاية القضاء (١)

لست متناولا مسألة امتناع على سالم بك ومخاصمة الدفاع له وقرار جمعية المستشارين وما ذلك لهوان الأمر علىّ . ولكنّ سادتنا الساسة قد كفونا المؤونة وأدّوا للشعب واجبهم فى مسألة لا شك أنها تهمّ الشعب كله

إنما أريد بولاية القضاء تلك التبعة الكبرى والأمانة العظمى التى كان خلفاء المسلمين فى أول الأمر يعانون الجهد فى الاهتداء إلى من يرضى بحمل ثِقْلها والنهوض بأعبائها . فقد حدّثنا التاريخ عن أبى حنيفة أنه دُعى إليها فقال : ما أصلح لها . وأنه ضُرب أو سجن من أجلها . وأن أبا قِلابة طُلب فهرب وغاب حيناً ثم عاد فقيل له : لو وَلِيتَ القضاء وعدلت كان لك أجران . فقال : إذا وقع السابح فى البحر فكم عسى أن يسبح ؟ . كما حدّثنا أن عمرَ ابنَ عبدِ العزيز طَلَب إلى إيَاسِ بنِ مُعاوِيةَ والقاسم بن رَبِيعَةَ أن يولّىَ أحدَهما القضاء فجعل كل يحيل على الآخر ويقدَح فى نفسه بما يظن أنه ينجيه منه حتى وقع فى شَرَكه إياس فكان من زَكَنه وعدله ما ضرب به المثل .

فما هو يا تُرى ذلك الذى هال الفقهاء ، من أمر القضاء ؟ لقد هالهم أن أحدهم يرى القدر معلقاً بين شفتيه ، وأنّ مصير الناس منه وإليه . فمنهم شقى وسعيد . ويرى أنه يجلس للحكم فيفترش أريكته فى الجنة أو يَتبوّأ مقعده من النار . وأنه إذا قال حكمت ، كان صدى صوته وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ .

---

(١) كتبت يوم البدء فى محاكمة المتهمين فى قضايا القتل السياسى

فما بالك برجل يتمثل الخلد وسقر، وينطق بلسان القدر . ويرى الله قد شرَّفه ، فأمره أن يخلُفه . ومنحه من صفاته القدرة وطالبه بالعدالة

نعم هاله أن يكون كلام الناسِ جِدًّا وهزلا وكلامه لا هزل فيه ، وأنَّ كل خطأ إلى ملافاة وخطؤه لا يمكن تلافيه . وهاله أن من المحتكمين إليه مظلوماً تشق دعوته السماء ، وموتوراً تحرق أنفاسه الهواء . وبريئاً أُخذ بجريرة متهم ، وهو لم يَجْنِ ولم يَأْثَم

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللـــهُ وإِنِّى بِحَرِّهَا الْيَومَ صَالِى

هذا ما هال السلفَ من أمر القضاء . فهل خطر ببالهم ما يجرى بيننا من تقاتل وتناحر [١] ، وتحاجز [٢] ، وتناجز [٣] . على وظيفته ؟

أَلَم يقل أبو حنيفة فى مثل حالنا : طالب القضاء لا يُوَلَّى

(١) بمعنى تقاتل (٢) الكف عن القتال (٣) الاشتباك في القتال .

٢٤

شهادة الزور

هى إحدى الكُبَر لقوله عليه السلام : ألا أخبركم بأكبر الكبائر ، قالوا بلى يا رسول الله قال الشِّركُ بالله وعقوق الوالدين (وكان متكئاً فجلس وقال) ألاَ وقولُ الزور وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا لا يسكت..

هى قرينة الشِّرك بالله لقوله تعالى (فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الاوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) . . .

هى تلك التى غيَّرت المعالم ، وتفشَّتْ بها المظالم . فصار الأمين متهماً ، والبرىء مجرماً . وفرّقت بين المرء وزوجه فكانت سحراً حراماً ، وشراً لِزَاما ، إِنَّ عَذَابَهَا كانَ غَرَاماً [1] . .

هى التى أصيب بها القضاء فعطلت أحكام الله ، وأطفئ نوره بالأفواه . وصار توخى العدالة فى الحكم ، إمعاناً فى الظلم . فزهق الحق وانتعش الباطل .

هى التى مكّنت العدوّ من دم عدوّه فاستحله بحكم القضاء ، وشريعة السماء ، فاجتمع بها الإغضاب للخالق والأذى للمخلوق ، واصطلحت على مستحلها أنواع الإلحاد والفسوق .

هى التى بها حُرِم المال كاسبه ، واستباحه ناهبه وسالبه . واتصل

---

(١) ملازماً

بالنسب مدّعيه ، وانتُزِع الولد من أحضان أبيه . فتقطعت أواصر القربى بين الناس . فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ

هى التى عمت بها البلوى فى المتقاضين فما تقوم بجانبها حجة ، ولا تنهض بيّنة ، إذا أحكم هذا الفاجر فجوره ، فلم يرده إلى الحق نورُه الذى يَغْشَى عينيه ، ولا حرارته التى تحرق قلبه . ولم تؤثر فيه ضراعة هذا الذى جرّته إلى المحاكمة دعواه ، وسجّلت عليه التهمة شفتاه . ولم يعدِل به عن كذبه ما يُصِمّ أذنيه من إنذار الله بعقابه ، وتوعّده بعذابه . وهل يؤديها على وجهها إِلَّا مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . . .

يقف أمام القاضى وهو يعلم أن سيف القضاء يُسَلّ من لسانه ، وأن لهب العذاب ينبعث من جنانه . فيُشهِد الله على قوله ثم يكذب عليه ، ويعين الظالم ولا يخاف أن يسلط عليه

سبحانك اللهم ! ! لم تخلق الهوامّ زواحف ودواب حتى شاءت قدرتك أن تجعل من الإنسان من يمشى على بطنه أو يقوم على أربع ، ويستحل لملئها كل مرعى ومَرْبَع

سبحانك ! هل كان أولى بالمسخ من شاهد الزور ؟ ما كان أجدره أن يطول لسانه حتى يعثر به ، وأن يسيل لعابه حتى يغرَق فيه . ثم إذا أراد الله له رَاحة من عذاب السخرية ، وانقضاء لأيام المحنة لفّ عليه لسانه فقتله بشىء من سمه الذى كان يلدَغ به الأبرياء

٢٥

ليلة القدر

لا أحب أن أُعيد على مسمعك فى شأن هذه الليلة المباركة ما قد طالما سمعته من قواعد [١] بيتكم أيام الصغر، أو تلقيته عن خطباء المساجد ووُعّاظها الذين غفلت عنهم وزارة الأوقاف وأطلقت لهم العِنان فى الدعوى على الدين، فتلك أَخْيِلَة [٢] دونها أَخيلة الشعراء وأكاذيب أغرب من أساطير الأولين . . . هؤلاء هم السلف الصالح الذين قطعوا العمر بعبادة الله وصاموا الدهر وأحيَوْا ليلهم بالقنوت — نقرأ سيرهم العَطِرة ونسمع حديثهم على ما فيه من دخيل فلا نجد أحدهم رأى تلك الفَجْوة التى تنفتح فى السماء فيخطَف نورها الأبصار، ثم ما تلبث السماء أن تنطبق وتَحْلِك ظامة الليل كما كانت، فمن أراد الله به خيراً أَطلق لسانه فى خَطْفَة هذا النور بالدعاء بالغاً ما بلغ من الخطل والاستحالة، محسوباً على الداعى لفظه. لا دخل فيه للنية، ولا نظر لما أراده القلب

ولا بد أنك سمعت حكاية ذلك « الحشاش » . الذى رأى ذلك النور فطلب من الله الستر فأخطأه اللفظ وجرى على عادته فى التفخيم فكان لفظه « الصطْل » وهو فى لغتهم استرخاء وغيبوبة يكونان من أثر تناول المخدرات

(١) جمع قاعد وهى العجوز (٢) جمع خيال

فحوسب الرجل على لفظه وقضى حياته « مصطولا » من غير « صطل »

أيها القارىء الكريم أستحلفك بالله أن تفتش قلبك (وأنت قد تعلمت وارتقى فكرك وتمّ يقينك) ألا تجد فيه موضعاً لهذا الوهم ؟ وأنك مهما غالبته عاد فخكّ فى صدرك لأنك تلقيته فى الصغر ممزوجاً بحلاوة الأقاصيص ؟ وإذا كان هذا شأنك فكيف بذلك الجاهلِ الذى يرى قول الواعظ أو الخطيب ديناً واجب التصديق إذا هو ظل على هذا الاعتقاد ؟ ألا يبقى حياته مشغولا بطلب المستحيل ؟ أو تراه فى شبابه سادراً [1] فى غوايته مدّخراً للتوبة ساعة من هذه الساعات التى يرتفع فيها سعر العبادة فتكون اللحظة بستين سنة ! !

رحمك الله أيها الأستاذ الإمام فقد أبى لك إجلالك لدينك أن تقبل مثل هذه التُّرّهات أو يصح عندك شىء من تلك المبالغات فى قدر هذه الليلة . وهذا تفسيرك ينطق بالحق فرحمك الله وأحسن مثوبتك .

أما ملخص هذا التفسير فهو أن هذه الليلة وهى إحدى الليالى العشر من آخر رمضان عظيمة القدر عند الله لأنه بدأ فيها بتنزيل آى كتابه على نبيه . وقد هبَط الوحى الأمين فى جمع من الملائكة يحمل إلى النبى أُولى هذه الآيات

فإذا نحن أحيينا هذه الليلة فلشكر الله على نعمة الإسلام

---

(١) المتمادى المستهتر

٢٦

القلب السياسى

حقا إن الله لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه . فرجال السياسة اليوم ليس لهم إلا قلب واحد هو القلب السياسى ، فما يتردد فى صدورهم إلا حديث الانتخاب ، وتوزيع الكراسىّ على الأحزاب . ومرسوم الميزانية ، والرحلة الملكية . وهذان الأستاذان عبد القادر حمزة وعباس العقاد وغيرهما قد بحّت أصواتهم فى هذه المسائل بين استنجاز لمطول ، وتعريف بمجهول . حتى لم يبق عامى ولا شبيه به إلا وقد وقف على كنه المسألة المصرية وما يُبَيَّتُ لها ، أو يُشدّ به أزرها

وما نعيب على وطنى أن يَعنيه أمر وطنه فيعرف أولياءه وأعداءه ونافعه وضاره ، ولكننا نعيب أن يقيِّد شىء واحد أسماعَنا وأبصارنا ، ويأخذ علينا مذاهبنا وشعابنا . فنتلافى خطراً ونستهدف لأخطار ، ونداوِى جُرحا ونفرّط فى جراح

هذا مرسوم ملكى قد صدر يبطل بدعة ويميت ضلالة ويقضى على مفاسدَ كثيرةٍ ويخلّصنا من شرور تورّطت فيها الأجيال الماضية — هو مرسوم بما ينبغى اتباعه من آداب الزيارة للقبور وتشييع الجنائز والإقلاع عن عادات الجاهلية الأولى . فهو إلى جانب كونه مرسوما ملكيا يجب أن نعتبره صفحة نقية من آداب ديننا القويم وصورة حسنة لما يجب أن تكون

عليه نفوسنا ويظهر به اجتماعنا من كمال ونظام

يقضى هذا المرسوم بمنع ذبح الذبائح داخل الحيشان أو بجانب القبور ، وعدم السماح بالمبيت فى القرافة أو المكث بها إلى ما بعد الغروب بساعتين، وبمطاردة المتكففين هناك ، وبإبطال الندب واللطم والعويل وإقامة الزار والملاهى بجوار المقابر ، كما يمنع أن يتبعَ الجنائزَ إلى القرافة نساء أو كفارات أو حملة القماقم والمباخر أو نحوهم .

يصدر هذا المرسوم ويُبدأ تنفيذه من ٢٥ مارس سنة ١٩٢٦ ويعرف كتاب الصحف ومفكرو الأمة أثره فى صلاح اجتماعنا كما يعرفون أنه علاج العلة التى ظللنا نشكوها مُرّ الشكوى فى السنين الفائتة فما ظفرنا لها بعلاج . واليوم حين يقدّم لنا العلاج أو تُزَفُّ إلينا البشرى بالسلامة من الداء لا نعلن الفرح بهذه النجاة ، ولا نبنى الآمال على خروجنا من أسر هذه العادات ، ولا نُعير هذا الموضوع نَفْثَةً من أقلامنا ! ! أما كان يحسن برجال الصحف أن يُعينوا رجال الإدارة على تنفيذ هذا المرسوم بشرح آثاره وبيان منافعه والتخويف من مخالفته حتى يُذْعن له الناس من غير عناء ولا كبير مقاومة

٢٧

كتّابنا

شاءت المقادير أن تمدّ فى أنفاس كلماتنا إلى مابعد رمضان ، وقد صحّ عزمنا أن نطالع حضرات القراء فى الفَيْنة بعد الفينة بما يقع تحت نظرنا الكليل من مادة للقول . هى ما بين حقيقة نَسْرُدُها أو مذمّة نَعيبها . أو محمدة نُذيعها أو صفحة من التاريخ نَنْشرها . ملتزمين ما رآه القراء منا فى (كلمات صائم) من إيجاز صريح وإشارة مغنية ، شاكرين « للبلاغ » خادم القضية المصرية اتساع صدره لكلماتنا

لعلى اليوم بهذه المقدمة الطويلة قد وقعت فيما سآخذ الكتاب به ، لأنى نويت فى هذه الكلمة أن أتعرض لسخطهم ، بنقد إنشائهم . . .

ليكن لأنصار الجديد حقهم فى أن يجددوا ولكن لا ينبغى لهم أن يفهموا أن من التجديد ذلك الخروج الذى يخرجونه عن حدود العربية وقوانينها . فليراعوا ذلك أولا ثم ليلعبوا بالأسلوب ماشاءوا ، وَلْيُهلهِلوه[1] ما أرادوا ، ولهم فى فضاء اللغة الواسع ومناحيها الكثيرة ما يسع جَوْلاتهم ويحتمل تجنّياتهم

لا يحسن بنا أن نسكت على من يجعل أول خطبته فى كتابه قوله بعد جملة أصفار ونقط (. . . وحتى هذا الكتاب يحتاج منى إلى مقدمة) فأن حتى هذه التى يقول فيها الأَخْفَش . أموت وفى نفسى شىء من حتى ، لأنه وجدها مشعبة الاستعمال ، متعددة المعانى والأغراض ، لم نجد من العرب

---

(١) هلهلة الكلام ترقيقه

من استعملها فى البدء البحت ولا من استعملها بعد هذه الواو . فكيف ساغ لهذا الكاتب أن يجمع بين الجنُوحين وأن يركب الشطط

ليس من أساليب العرب فى حقير ولا جليل ما يبدأ به القُصّاص رواياتهم من ضمير لا مرجع له وليس هو بضمير الشأن مثله فى قوله تعالى : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) . فترى الرواية قد بدئت بقول كاتبها : مضى عليه فى هذه الجزيرة عشر سنوات لا يعرف له مأوى غير الكهوف . .

وما كنت أودّ أن أذكر أسماء ولكنى مضطر أن أبوح باسم الأستاذ توفيق دياب ، يدفعنى إلى ذلك ما أحب من تسجيل فضله وأدبه الجم . ثم لا يمنعنى هذا من لومه وهو ذلك العربىّ الجَزْل بل البدوىّ القُحّ أن يتهافت تهافت هؤلاء الأطفال الذين يمضغون الكلام ويقطّعونه تقطيعاً فيقول فى ذيل مقال له فى السياسة الأسبوعية فى تقسيم الناس إلى جادّ فى الحياة وهازل (ترى أى الرجلين تكـ . . يكـ . . أكون) أراد أن يأتى بجميع أنواع الضمائر للمخاطب والغائب والمتكلم فمنعه الحياء أن يتم الكلمتين تكون ويكون . ولعله رأى مثل هذا التعبير فى اللغات الأخرى ولكننا فى العربية صُرَحاء لا يمنعنا من قَوْلة الحق مانع . فإذا كان الأستاذ دياب قد حسنت نيته وأراد أن يدخل إلى العربية ذوقاً جديداً فى التعبير فقد وقع فى « التك » « واليك » وهى لغة النَرْد [1] فى عرف اللاعبين . وما نرضى له أن يكون ككتاب الروايات الساقطة الذين يريدون أن يمثلوا الحياء والخجل فيقولون وطلب منها قـ . . بـ . . لة . وليس ذلك فى رأيى إلا نوعا من الاستعجام

(١) « الطاولة »

والنبطية[1] وإلا ففى اللغة الألفاظ الكثيرة التى تدل على الخجل والاستحياء

لعل لكل هؤلاء الكتاب عذراً لأنهم قد غمرت عقولهم الأساليب الأعجمية فوقعوا فيها طوعاً أو كرهاً . فما بال أستاذنا الشيخ عبدالباقى سرور فى أمالى رمضان يكرر لفظ (هذا) فى خمسة أسطر أكثر من عشر مرات ولا ندرى كيف أخذته جلالة هذا اللفظ حتى كرره تكراراً معيباً . مع أن نقاد المتنبى حين عابوا عليه الإكثار من كلمة (هذا) لم يجدوا له فى ديوانه كله ما وجدناه مجموعاً فى أسطر الأستاذ . قال حفظه الله : هذا للأجنبى ، هذا حسن . هذا عن الغرب ، هذا جميل . هذا من أوربا ، هذا رقى . هذا من انجلترا ، هذا فيه سعادة . هذا من فرنسا ، هذا فيه عزة . هذا من إيطاليا ، هذا فيه فخر . هذا من الشرق ، هذا ممقوت . هذا من تعاليم الإسلام ، هذا قديم . هذا من الدين ، هذا خُرافة .

وبعد فمعذرة أيها الكتاب ، وصفحاً أيها البصير « قُدَامة لتطفلى على مائدتك الشهية »

---

(١) لغة قوم كانوا ينزلون بين العراقين « العربى والفارسى » فكانت لهم لغة بين العربية والفارسية ويضرب بأهلها المثل في العجمة

٢٨

شاعرنا حافظ

أقيم الاحتفال بالعيد الخمسي[١] للمقتطف فكان من المصريين أكبر مظهر لعرفان الجميل. فقد تولّى رعايته أكبرُ مقام في مصر (حضرة صاحب الجلالة الملك) وشهده وشارك فيه خلاصة الأمة من أمراء وزعماء وعلماء فكان ذلك شكراً بالغاً على ما أسدى المقتطف إلى المصريين من فضل.

موضوع كلمتنا هذه هو قصيدة حافظ إبرهيم بك وسنتناولها بالنقد ونبيح لأنفسنا أن نكون فيه أحراراً. وما يعنينا أن يغضَب حافظ أو ينقِم منا هذا الخروج على الصداقة فإن حق الأدب فوق كل حق. أليس هو حق اللغة التي وضع منها حافظ في قصيدته وحق الشعر وجمال الفن اللذين أساء إليهما؟ فكيف يعدل حق واحد حقوقا كثيرة. على أننا نطمع في صفح حافظ يوما ما ولا نعدّ أنفسنا أهلا لرضا اللغة عنا حين ننام عن وِتْرها[٢] ولا ننتصف لها.

سأترك لشاعرنا معناه فلا أتعرض له باستهجان ولا بدعوى إسفاف وسُوقيّة ونرانا بذلك قد أكرمنا حافظا ونزلنا له عن كثير مما لا يتساهل فيه غيرنا. وموقفنا معه اليوم في شأن ألفاظه وأساليبه وأغاليطه واستعاراته وتشابيهه وقوافيه..

---

(١) نسبة ألى خمسين ويخطىء كافة الكتاب يجعل النسبة أليها على لفظ «خمسيني»

(٢) ثأرها

لو عرفت أيها القارىء طريقة حافظ فى كل ما يكتب لعجبت كيف يعثرُ له ناقد على غلط لأن حافظا إذا قال بيت شعر أو سطر نثر تلمَّس الأدباء وغير الأدباء بكل سبيل فأقبل عليهم يسمعهم ما قال مقدِّما أو معقباً بشرح الصعوبة التى عالجها والعقبات التى تخطّاها فى إخراج ما أخرج وما يزال يزيِّن لك جمال هذه اللفظة واختراع ذلك المعنى وأنت غير مستطيع لشدة إقباله عليك وتوسّله إليك إلا أن تشير إشارات الإعجاب ، وتتظاهر بمقدرته على الإطراب . ولعل هـذا هو السر فى أن شعر حافظ أو نثره يخرج بعد طول هـذا العرض محتاجا إلى كثير من الإصلاح . وأشهد لقد سمعت منه هذه القصيدة فلم أملك من الحرية ما أُبدى به رأيى فيها .

استوقفنى ثالث بيت فى القصيدة وهو قوله فى الحديث عن صاحبى المقتطف

خمسون عاما فى الجهاد كلاهما شاكى البراعة طاهرُ الجلباب

غلطة نحوية ! ما يحسن بذوق حافظ أن يستسيغها مهما ادّعى الجهل بقواعد اللغة فإن هذه القواعد ليست منفصلة عن الأسلوب وحافظ لا يقبل أن تقول عنه إنه لم يتذوق بعدُ الأسلوب العربى

كلمة كلاهما تحتاج إلى واو لتكون وكلاهما لأنها وما بعدها جملة واقعة حالا وهى محتاجة إلى رابط . وهذا كلام نوجزه وإن كان له خبىء مطول فى كتب النحو

كذلك فى البيت كلمة (طاهر الجلباب) وهى كلمة يراد بها براءة الذمة ونقاوة العرض والأصل فيها أن يقال طاهر الذيل فلعل الذى بدّل بالذيل

الثوبَ كله هو حكم القافية وما أكثر ما تحكّمت فى هذه القصيدة

أما كلمة اليراعة فقد أعجبتْ حافظا حتى كررها ثلاث مرات فى ثلاثة أبيات متوالية فقال بعد هذا البيت :

(وأرى اليراعة حِلْية الكتّاب)

وبعده

(إنّى نظرت إلى اليراعة فى يدى)

وقال بعد ذلك فى وصفها

ونظرتها تنقضّ من كفيهما فوق الطروس فخِلْتُها كشهاب

وقبل أن أذكر لك رأى علماء البلاغة فى هذا البيت نتحاكم إلى الذوق فى قوله (خلتها كشهاب) أليس أحسن منه وأمثل (خلتها شهاباً) . أما رأى علماء البلاغة فهو أن خال من أدوات التشبيه مثل الكاف فهى مغنية عنها وليس من غرض يدعو إلى تكرار الأداة فلم يبق إلا أن حافظا ألجأته القافية إلى هذه الكاف

قال بعد ذلك

يُزهَى مُدَجَّجُنا برمح واحد وأراهما لا يُزهَيان بغاب

الغاب جمع غابة وهى الآجمة فهل يريد أن لديهم أقلاماً كثيرة فهى تحاكى فى كثرتها كثرة الأشجار فى الغابات . إن كان هذا قصده فما أرى كثرة الأقلام مغنيةً عن الكاتب أو العالم شيئاً . وإن أكثر الناس أقلاما هم أولئك الأطفال حين يبدءون المِران على الخط . ولو أن معنى حافظ كان معنى شريفا ما عدل عنه أبو تمام فأفرد القلم فى قوله

لك القلمُ الأعلى الذى بشباته يُصاب من الأمر الكُلَى والمفاصل

ثم قال حافظ فى شيخَىْ المقتطف أيضاً

جازا مَدَى السبعين لم يتجاوزا عن وصل حمد واجتناب سباب

شطر هذا البيت أسلوب ركيك غير صريح الدلالة على معناه فهل المعنى أنهما استمرا يواصلان الحمد أو المدح ويجتنبان السب . أو أنهما استمرا هذه المدة يستحقان منا أن نواصل حمدهما بفعلهما الجميل ولا نجدلهما مايوجب الذم . أما المعنى الأول فليس مدحاً لهما وأما الثانى فلا تؤديه العبارة

ثم قال من وصف المقتطف :

اللفظ فيه مقوم بصحيفة والسطر فيه مقوّم بكتاب

فهل يعجب حافظاً أن يكرر حرف جر مرتين فى بيت واحد ألم يكن مستطيعاً أن يجعل واحداً فيه والآخر منه ، كذلك الشأن فى تكرار كلمة (مقوّم) ولست أرى غرضاً ظاهراً من أغراض التكرار فى علم المعانى دعا حافظاً إلى ما ارتكب

ثم يقول : —

كم من يراعة كاتب جالت به ولُعابها فى الطِّرْس حلو رُضاب

لاشك أن الرضاب فى ذوق المحب حلو وهو شهد أو أرقّ . ولكن ألم يكن يحسن اتباع الذوق الشائع فى وصفه بكلمة (عذب)

ثم قال : —

وقفتْ سُقاة الفضل فى جنباته تروِى النفوس بمُتْرَع الأكواب

فوقع حافظ فى غلطة أبى تمام واحتجنا أن نطالبه بكوب من الفضل

كما طولب أبو تمام بملء زجاجة من ماء الملام [1]

ثم قال فى وصف محاسن المقتطف

قد نُسِّقتْ وتآلفت فكأنها فى الحسن مثل تآلف الأحزاب
وترى تهافتنا عليه وحرصنا فتخال فيه مقاعدَ النواب

لقد أشبه حافظ فى قافيتيه هاتين (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب) نجيبا الريحانى وعليا الكسار فى انتقالهما من الدُّعابات والخلاعات فجأة إلى ذكر الوطن والوطنية حتى يستثيرا إعجاب المتفرجين فيشتد تصفيقهم ويتعالى صياحهم . فهكذا أراد حافظ أن يستدرّ الأيدى شيئاً من التصفيق ويستجدى الحناجر بعضاً من الاستعادة فذكر (تآلف الأحزاب) و (مقاعد النواب)

ثم قال : —

لو كنتُ فى عهد الفتوة لم أزل لوهبت للشيخين بُرْد شبابى

هل يستطيع حافظ أن يقول إنه يريد غير هذا الترتيب (لو كنت لم أزل فى عهد الفتوة) . وإذ ذاك تكون هذه الغلطة هى الغلطة النحوية الثانية فى القصيدة لأن خبر الفعل الناقص المنفى لا يتقدم حرف النفى . على أن حافظا لو شاء أن يتمحل له أنصار الرِّكة وجه صحة لوجدوا ابن كَيْسان يجيز ذلك . ولكن ليتمهل حافظ فإنه إن نجا من كون تعبيره خطأ لا ينجو من التجائه إلى ضعف التأليف فى نظر البلاغى .

وإنى ألاحظ أن حافظا أخذ منذ سنين يعتذر فى آخر كل قصيدة عن

---

(١) عيب على أبى تمام قوله

لا تسقنى ماء الملام فإننى صبٌ قد استعذبت ماء بكائى

التقصير بدعوى الشيب والضعف وما عهدنا الشعراء يزدادون على الكبر إلا رونق لفظ وصفاء ديباجة وحكمة معنى . وما كان الشعر يوما صِراعا أو نِطاحا حتى يُعتذر فيه بمثل هذا . فلم يبق معتذراً بالشيب إلا حافظ وهذا الذى يقول

وماذا تبتغى الشعراء منّى وقد جاوزتُ حدَّ الأربعينِ

بقيت مسألة خارجة عن الشعر ومستلزماته ولكنها متعلقة بالذوق العام . كيف أباح حافظ لنفسه أن يُكنّى عن الشيخين فى أول القصيدة ثم يفرد أحدهما فى آخرها بذكر اسمه فيقول

يعقوبُ إنك قد كبرتَ ولم تزل فى العلم لاتزداد غيرَ تصابى

وفى الختام أرجو ألا يعدّنى حافظ خارجا على مودته فإنى ما قصدت الإساءة إليه وأنا أبتهل إلى الله الذى وفّقنى إلى رضائه قديماً أن يديمنى له كما كنت والسلام

٢٩

شـــــوقى

أليس عجيبا أن تكون كلمة واحدة عنوانا لمقال ، وقد اعتاد الناس أن يستشفوا من العنوان موضوع الحديث . فهل عَهِدْنا أنّ كلمة واحدة تستقل بالإفهام ، وتؤدى مالا يؤديه كلام ؟ . نعم عهدنا ذلك فى الكلمات العالَمية التى لا يستساغ فيها الجهل بل لا يستطاع . فالشمس والقمر وعُطَارد من عالم السماء ؛ والطود والبحر ، والسهل والوعر ، من اليبَس والماء ؛ والبحترى ، والمتنبى والرضىّ وشوقى من الشعراء . . . كل تلك كلمات تستغنى أن تعرّف ، وتجلّ أن توصف

لقد كان من عجيب الاتفاق أن اللغة العربية فى مظهريها الشعر والنثر تنزلت من علياء البلاغة إلى حضيض الركة والفهاهة انحداراً مع الزمن ومسايرة للتاريخ . فشاعر القرن الرابع أجزل من أخيه فى الخامس . وهذا أقرب إلى الإبانة من ناظم القرن السادس . وهكذا حتى صرنا نحكم على الأديب بتاريخ وفاته أو ولادته ، فى مقدار إجادته ، فنقول هذا من فحول القرن الثالث أو الرابع . وذاك من شعارير[1] القرن الثامن التاسع . ولقد تقرر ذلك أصلا فى تاريخ الأدب لا نجد له شذوذا ولا نصطدم فيه بما يعطّل القياس أو يناقض القاعدة .

ولكنّ عصرا جديدا قد تهيّأ لعظمة شوقى الشعرية كما تهيأ العصور وتتكون المقدمات وتتجمع الأسباب لفاتح يغير وجه التاريخ أو مصلح

(١) جمع شعرور . وقالوا الشعر ثلاث مراتب شاعر ، ثم شويعر ، ثم شعرور

ينشىء الاجتماع نشأة جديدة ، ذلك هو العصر الذى بدأه المصلح الأكبر محمد على باشا بإيجاد المطبعة ونشر الكتب النافعة . ثم أعقبه حفيده إسمعيل باشا الذى استبطأ فى تمصير البلاد دورة الفلك وهمة الأيام فكانت همته فى ذلك أسرع مضاء ، وأكثر إرضاء .

نشأ شوقى فى بيئة ذاع فيها العلم وكثرت المطبوعات فنمَتْ عبقريّته ، ونَضِجت شاعريته . ورأيناه قد طوى مرحلة عشرة قرون وقفز إلى القرن الثالث والرابع يعارض البحترى ، ويساجل المتنبى ويتزيد على أبى تمام

والحق أن من الظلم لشوقى أن ندّعى أنه ثمرة هـذا العصر أو نتيجة تلك المقدمات . فإن المعروف أن العبقرية لايكوّنها جيلها ، ولا تستمد وجودها من عصرها . بل هى مخلوق ينشئه الله نشأة وحده . فيكون فى عصر الظلام نوراً يكشف الغياهب . وفى عصور التمام شمسا تضائل البدور ، وتكون نورا على نور .

ودليلنا على ذلك مما نحن بسببه هـذا الإمام الجليل والعالم الطليق الفكر « ابن خلدون » فقد نشأ بالقيروان وما هى فى أيامه إلا جهل وأُميّة ، وحرمان من المدنية ، بل استئناس إلى الوحشية : فكان غريبا أن يكون من بين أهلها هذا الباحث الناقد والمؤرخ الذى غيّر وجه التاريخ .

* * *

عَيْبى على المتقدمين من الأدباء أنهم أقفلوا باب الأدب كما أقفل الفقهاء باب الاجتهاد . وإن صح للفقهاء ذلك لأن وسائل الاجتهاد قد انقطعت بانقطاع رواية الحديث والتلقى عن الصحابة والتابعين مثلا فما كان

يصح أن يحرّم الأدباء على العقل البشرىّ أن يتغزل كغزل جرير أو يصف الخمر كصفة الأخطل أو يفخر كفخر الفرزدق . ذلك لأن الإجادة فى كل هذا سببها قوة الخيال والملكة اللغوية . وما بمستحيل على عقل بشرىّ مهما أتى متأخراً أن يفوق فيهما المتقدمين ما دامت قوة الخيال مستمدة من الفكر وهو لا تقف حركته ولا يزداد على كثرة المشاهدات والتثقيف بالعلم إلا اتساعاً ، وما دامت قوة الملكة اللغوية مكسوبة بتلاوة القرآن وحفظ كلام المتقدمين. فإذا أضفتَ إلى ذلك العبقريةَ المواتية والذكاء المساعد فقد تمت الأسباب وصح لك أن تساوق الأموى ، وتُرْبى على العباسى ، لا بل أن تظهر فى المعنى والخيال عجز الجاهلى .

رحم الله أياماً كان أستاذنا الشيخ علام سلامة يملى علينا . . . . وأغزل شعر قول جرير

إنّ العيونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ ... قَتَلْنَنَا ثم لم يُحْيِينَ قَتْلَانا

يَصْرَعْنَ ذَا اللبِّ حتى لا حِرَاكَ به ... وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ الله إنساناً

وأمدح بيت قوله

أَلَسْتُمْ خيرَ من رَكِبَ المطايا ... وأَنْدَى العالمين بُطونَ رَاح

وأحكم بيت قوله

إنى لأرجو منك خيراً عاجلا ... والنفس مُولَعَةٌ بحب العاجل

وتلك أبيات إذا قسناها بما يعرف كل أديب من نظائرها فى كلام شوقى ظهر فضلُ الحضارة على البداوة ، وصقلُ العلم على خشونة الأمية وجفاء المنظر . .

يستدلّ العلماء على إحسان الشعراء العباسيين واتّساع المعانى أمامهم وظهور الحكمة على ألسنتهم بحضارة عصرهم وجمال مناظرهم وشيوع العلم فى أيامهم وترجمة حكمة اليونان إلى لسانهم. ويعدّون من المستحيل أن تصل البلاغة وجودة السبك وحدّها إلى دقة الوصف وسمو الخيال ورقّة الغزل، لأن هذه أمور تتصل بالمعنى وتنتج عن الفكر، فاستحال فى نظرهم أن يبلغ الجاهلى شأو العباسىّ فى خياله ورقّته وحكمته

وإذا كان الفضل للعلم والأثر للمشاهدة فلم لا يكون الفيلسوف من فلاسفة القرن العشرين المغمور بنعيم مدنيته، السابح فى بحر خياله بما يرى وما يقرأ لملوك القصص، خيراً من أهل العصر العباسىّ، فى حين أن حضارتهم إذا نسبت إلى حضارتنا بداوة؛ وعلمهم بالقياس إلى علمنا طُفَاوة [1]؟ ولِمَ لا يكون شوقى أشعر من كثير منهم وهو الذكىّ الفؤاد. الخِصْبُ المَلَكة، الرقيق الطبع، الواسع النعمة، الناشىء فى قصور الملوك صبيًّا، وحامل «الليسانس» فتيًّا؟

* * *

لعمرك ما الشعر خمر يصفّيها القِدَم، ولا طنافسُ يُغليها طول عهدها بالقَدَم، ولا عاديّاتٌ يكون ثمنها على مقدار البِلى والعَدَم. ولكنه لفظ ومعنى إذا هما اجتمعا فى نفس، وصدرا عن صادق حس. استحق صاحبهما أن يتقدم وإن تأخر به الزمن، وفاته البكاء على الدمن

(١) الطفاوة ما علا فوق الماء لخفته

من ذا يحدّثنى عن شىء امتاز به الأوائل ثم لم يكن لشوقى منه أجزل نصيب. آلبداهة والارتجال؟ وله فيهما فضل عرفناه فى وفائه لأصدقائه من كبار المصريين خدّام الوطن والعلم وفخر البلاد فيما تولّوا من جليل المناصب حين كانت تعاجل المنيّة أحدهم فتسير فينا قصيدة شوقى قبل جنازة الفقيد وتكون مَوْكِباً من القول، أحفل من موكب المشيّعين. وسِجِلاً للفضل يقصر عنه اجتهاد المؤبّنين

سلوا يوم مصطفى كامل وعمر لطفى وعلى أبى الفتوح وغيرهم ممن كنا نقرأ خبر وفاتهم فى قصيدة شوقى قبل قراءته فى « الأخبار المحلية ». كذلك نسائل عن بداهته وارتجاله جلساءه فى شُرفة « الكونتنتال » حين يتسامرون ويلهُون ويمزحون وجَلَبة الشارع من حولهم وجَعْجعة العجلات والسيارات عالية على أصواتهم، وهو معهم فى كل شعب يسلكون، وفى كل واد يهيمون ولكنه بين الفترة والفترة يُقبل بقلمه على ورقته، فيقيّد من أوابد الشعر وعويص المعانى ما لا يتفق للمروّى الذى يَفْنَى فى قلمه وقرطاسه، ويكاد يحترق من قدح الفكر احتراق نبراسه... فأين منه من لا يكفيه سكون حديقة الأزبكية حتى يطلب خفوت الجَرْس. وانعدام الحس فى قُنة « الجبلاية » فلا يغنيه ذلك شيئاً ولا يخفف عنه عبئاً. ولكل بيت من أبياته جولة يَذْرَعُ فيها الحديقة من جنب إلى جنب، ومن شرق إلى غرب. ويترامى على الحشيش، لعل النفس منه تَجيش. فإذا اتفق له المعنى الضئيل فى اللفظ الكليل. حمد المغبّة، وشكر ربه. وإن عثرتَ له بالمعنى السائغ،

فى لفظ غير زائغ . فاعلم أنه بذل فيه جَدْع الأنف ولطم الصدغ ونتف الشارب ، والفتل فى الذِّرْوَةِ والغارب . هـذا الذى ستره الله يوم رثاء الأستاذ الإمام لأن مرضه كان مرضاً لارجاء معه وقد نفس الله على الشاعر بطول المدة حتى استطاع أن يخرجها قصيدة مشئومة الطالع نَعَب فيها على دار الإمام نعيب الغراب ، يتبعه الخراب فلما تمت أبياتها جعل فى نفسه يتعجّل القدر أن يذهب بالذَّماء ، حتى يتقدم للإنشاد جميعَ الشعراء . وهكذا تمت له الأمنيَّة الخبيثة والوفاء المنكود

وما ذا للقدماء من فضل لم تجتمع له أسبابه بعد البديهة والارتجال ؟ أجودة المعنى ورقّ الخيال ؟ ؟ ونحن لم نر من النقاد الأبرياء وغير الأبرياء من أخذ شوقى بسرقة ولا ادعى عليه إسفافا . فكل معانيه أبكار ، يزينها مع الخفَر كريم النِّجَار [1] . فهى إما منتسبة إلى اقتصاد أجاد دراسته . أو قانون أطال ممارسته ، أو تاريخ استصفى عِبرته . أو دين ، تم له فيه اليقين

أما خياله فإن كان غزلا فما أعفّ وأكرم . وإن كان قَصَصاً فما أدقّ وأحكم .

سائلنى عن السابقين فيم أجادوا ؟ فأذكر لحبيب الرثاء ، وللمتنبى وصف الغارة الشعواء ، ولابن الرومى الهجاء ، وللرَّضِىّ التمدح بالشرف والعلاء . وللوليد عَبَثَه ، ولأبى نُوَاس خمرياته ورفثَه [2] ، أما شوقى فيملكنى البُهْر ، ويأخذنى السِّحْر . وما أدرى أى نواحيه أشعر ، وأى أضوائه أبهر . فهو الذى يرثى الشموس فتعود إلى الدوران ، ويمدح الملوك فيعقد على جباهها أبهى من

(١) الخفر الحياء . النجار الأصل (٢) الرفث الفحش

التيجان . ويصف من النفوس الهواجس ، ويتغلغل فيها إلى حيث الأمانى والوساوس . ويسرُد لك التاريخ فكأنك ما تلقنته من غيره ، ولا قرأته إلا فى شعره . لأنك لأول مرة فى تاريخ هذا العلم تسمعه على لسان معتبر به مستبشر بخيره ، مبتئس بضيره . ومن ذا يستطيع ذلك إلا شاعر له روح شوقى تجول فى العوالم وتتقمّص ما تشاء من أشكال

لعلك لاتجد فى الشعراء المتقدمين من يستطيع أن يمثل لك عصره أو يكون (كما يقولون) مرآة جيله لأن كل واحد منهم تناول ناحية من القول خف عليه تناولها ، إذ كان بسبب منها ، فالزاهد لايجيد إلا وصف الزهد ، والعاشق لاترى عيناه غير الجمال ، ولا يبكى إلا للهجر ولا يسر إلا بالوصال . فأما الشاعر الذى لم تحدث حادثة إلا حرّكت نفسه ، وملكت حسه ، فذلك هو شوقى : يبكى للمنكوبين ، ويَغْتَمّ للشاكين ، ويُطْرِى العلماء ، ويخلّد العظماء ، ويثير العزيمة ، ويدعو إلى كل كريمة ، ويسجّل للأبطال النصر ، ممزوجاً بالإعجاب مَجزيًا بالشكر . ويشفى النفوس المريضة من أدوائها . ويريح المتعبة من عنائها ، ويرد اليائسة إلى رجائها .

أذكر لى حادثة لم يلبّ فيها شوقى نداء الضمير ولم يُجب داعى الإنسانية غير مدفوع فى ظهره ولا مسوق بحبل التأميل ، واذكر بجانبه هذا الشاعر الذى لايبكى إلا بالأجر كالنادبة تعطيك من دموعها ، على قدر ما تشبع من جوعها . هذا الذى لم يتحدث إلى الناس عن جماعة رعاية الأطفال ، إلا بعد أن عُدّت له الخمسون عدّا . وتسلمها نقدا

ولست أحيلك إلا على الجزء الأول من الشوقيات حتى ترى أنه سِجِلٌ حوادث ، وتاريخ عظماء ، وقَيْد حكمة

ولقد نظلم شعر شوقى لو آثرنا بيتاً له برواية ، لأن ذلك يشعر بفضل لبعض قوله على بعض ، أو أن الجميل فيه محسوب معدود وليس شيء من ذلك بجائز فى رأينا . فالرأى أن تتناول السبيكة كلها فتمتع بجملتها كلتا عينيك ، وتستمسك منها بجُمع يديك .

٣٠

حول الشوقيات

صديقى الأديب الفاضل صاحب « عكاظ »

سألتنى عن رأيى فى شوقى والشوقيات . وأنا أعلم من حرصك على الأدب وخدمتك له فى صحيفتك الذائعة ، ومن طول ما شدت بذكر شوقى ، ونشرت من شعر شوقى ، وحاربت من حساد شوقى — أعلم من كل هذا أنك فى غنى بيقينك فى الرجل عما يُدْلَى به إليك من آراء . ولكنى أعلم بجانب ذلك أن فيك ميلاً للحرية فى الرأى والإباحة لشريف النقد هو الذى جعلك تبذل صحيفتك لكل من له رأى فى شوقى . لا تبالى بعد أشايعك وتابعك ، أم خالفك ونازعك ، فأقبل قبل رأيى فى شوقى شكراً جزيلا على هذه الخدمة الصادقة للأدب والإخلاص الحق للتاريخ

أما شوقى فإنى وإن كنت قد أدّيت الواجب علىّ تلقاء شعره وعبقريته فى السياسة الأسبوعية لا أرى مانعاً من إعادة الإطراء والمديح ، وتكرار التسبيح . ما دام جمال شعره متكرراً فى كل صفحة ، متجلياً فى كل لمحة

شوقى شاعر إذا مدّ الله فى عمره كما مدّ فى عمر زهير وحسان ، اجتمع له من الشعر مالم يتفق لعشرة شعراء من المكثرين أمثال ابن الرومى . فإذا اجتمع إلى هذه الكثرة أنه لا غموض يعدّ عليه ، ولا سقوط يؤخذ به . كان شوقى المثل الأعلى الذى ظل أمنيّة الآداب فما تحققت إلا فى زماننا ، ولا

رنّت موسيقاها إلا فى آذاننا ، ولا اكتحلت بمرآها غير عيوننا

لا أنكر أن لغنى شوقى أثراً فى سموّ نفسه ، وأن لسموّ نفسه أثراً فى جلال شعره ، وأن لجلال شعره أثراً فى سعادتنا الأدبية بما يطالعنا به كل يوم من تهذيب لنفوسنا ، وتخليد لمجدنا ، وترفيه لآلامنا ، وإنعاش لآمالنا.. وكما يجمع الله المجد فى ماجد ، يجمع مزايا الشعراء فى واحد ، فشوقى هو ذلك الجزْل ، السهل الدقيق ، الرقيق . الجذلان ، الولْهان ، الجادّ ، الهازل ، الرحيم ، القاسى

جناية جناها شوقى على شعراء العصر ، هى جناية الشمس على الكواكب والبدر . وفضيلة أراد الله أن تنشر ، فأجرى على ألسنة الحساد كل زُورٍ من القول ومنكر

هذا وتفضل بقبول الشكر على حسن ظنك بى واعتدادك برأيى

٣١

تهذيب الكامل

صديقى الجليل صاحب تهذيب الكامل

تحية لك أيها الأخ الفاضل، وشكراً على هذه الهدية الثمينة التى ملكتْ علينا بعظمتها سبل المكافأة. وأى شىء يدخل فى باب المناظرة لهديتك «تهذيب الكامل» إلا ما يملكه كل من بَهظَته المِنّة من كلمة شكر يرجو أن يصل بها إلى موضع الرضا من قلب المشكور.

لقد كفانى فى الحكم على مجهودك العظيم، وتهذيبك المجدى، أن نظرت فى فهرس الكتاب، فإذا هذه النظرة مُوحية إلىّ بما بذلتَ من عناية، وألّفتَ من شارد، وقربت من بعيد، وسهّلت من صعب. وإذا بك قد بَرَرْتَ المبرَّد أعظم البر. وقمت عنه بما قد فاته أن يبرّز فيه تأليفه من ترتيب وتبويب، أدعى إلى الفهم، وأليق بما ينبغى من تسهيل العلم

لقد شكوتَ إلىّ ماقابلك به بعض أنصار القديم [1] من انتقاد لعملك. ولقد كان أبلغ قول تجيبهم به إظهارك هذا الكتاب فى هذا الطراز الجديد. وماذا يضير هؤلاء الجامدين أن يروا بَدَدا يُنظم، أو جامحا يُلجم؟ وما هى منهم والله بإخلاص للعلم، ولا أمانة عليه. ولكنها عدوى أوروبية ونزعة غربية. فى الاحتفاظ بالقديم والإبقاء على البالى. وإذا أبيح لهم ذلك فى

(١) طلب من الشيخ علام سلامة ابداء رأيه في هذا التهذيب فقبحه كل تقبيح

خرائب الدور وأطلال القصور . فليس بنافع للعلم أن تبقى منه خرائب مدعومة . وفائدة معدومة

لقد كان من الغرام الكاذب بكل ما يراه الغربيون . أن استحسن مستحسن كتاب « الكامل » على ما به من تهويش واضطراب ، ليس لها شبه فى كتاب . ووالله لو أن يدا خرقاء عبثت بكتاب فنثرت أوراقه ، وبدّدت نظامه ، وقطعت كلامه . ثم قامت بجمع منتثره ، ولمّ مبعثره . غير مهتدية إلى تعقيب ، ولا حريصة على تبويب . ما كان بأدخل فى الاضطراب من كامل المبرد . ولئن كان تقطّع الصلة فى ذلك الكتاب قد عاق كثيراً من الأدباء عن استيعابه ، وتقصّى الفائدة منه ، لقد أحيا تهذيبك الرغبة فى الانتفاع بهذا السفر الجليل والأثر العظيم .

ولست أشبّهك فى عملك هذا إلا بمن اهتدى إلى نبع يتفجر منه ماء عذب ، ينساب فى كل صوب ، فتتشرّبه الرمال ، وتتخلّف عنه الأوحال . ولا ينهَله الناهل إلا مختلطا بالقذى ، فيلقى منه كل أذى . ثم جاءت يد صَناع فطوَتْ[1] النبع ، وأقامت عليه صِهْريجا وأنفذت فى الصهريج صنابير فاجتمع الماء ، وضُمن الصفاء .

وبعد فهنيئا لك هذا العمل الخالد ، والنصرة الكبرى للأدب العربى جعل الله لكتابك من الرواج بين الأدباء مايجزيك بعض الجزاء عن الهمة التى همَمتها ، والعزيمة التى وجّهتها ، والنية التى أخلصتها

واقبل التحية والشكر والتهنئة من أخيك

---

(١) طوى البئر بنى داخلها حتى لا تنهار

٣٢

ديوان مهيار

أخرجت دار الكتب المصرية فيما تخرج من كتب الجزء الأول من ديوان مهيار وهو ذلك الشاعر الديلمى الجزل القول الطويل النفس الذى يكفى فى فضله أنه تلميذ الشريف الرضى الناسج على منواله المسلم على يديه

وليس يعنينا فى هذه الكلمة إلا تلك المقدمة التى قدم بها الكتاب شاعرنا المعروف أحمد نسيم فقد جعل حضرته عنوانها (كيف صُحّح هذا الجزء) فوصف العناء الجم الذى لاقاه فى قراءة الأصل واستجلاء غامضه واستكناه عويصه حتى اضطر إلى «تصحيف» كثير من الألفاظ التى ذهب إعجامها أو وضع خطأ فى غير محله. ثم ضرب لنا هذا المثل من تصرفه وتصحيفه وهو قول مهيار

وأنعُمٌ تأتيه مع الربيع جُدُدُ

وقال: (إن المقصود فى هذا البيت هو كلمة «تأتيه» وهى فضلا عن بُعدها عما يقتضيه السياق وعن عدم اتزان البيت بها فإنها توجب أن تكون القافية وهى «جدد» منصوبة فصحّفناها إلى نابتة أو إلى ثابتة ورجّحنا الأولى لالتئامها مع قوله «الربيع» وقوله «جدد» وهى لا تخفى على أهل الذوق.)

.. مهلا مهلا أيها الشاعر المعروف. إنى لم أر كلاماً هو أجمع للخطأ

والخطل من هذه الأسطر القليلة التى نقلتها من كلامك . وأرى أنه لو تعمد متعمد أن يهزل بالخطأ ما كان بالغاً هذا الحد الذى أوصلك إليه الجِدّ الذى تفخر به . . أما قولك إن كلمة تأتيه تمنع اتّزان البيت فذلك خطأ ظاهر يأباه أضعف الأذواق وأبعدها من معاناة الشعر . فكيف ساغ لشاعر أن يتورّط فى هذا الحكم . على أننا لو أردنا إقناعك من ناحية العَروض وأحكامه لاستطعنا أن نقول لك إن البيت من بحر الرجز وهو مجزوء دخل عروضه القَطْع (وهو حذف آخر الوتد المجموع مع تسكين ما قبله) فيصير مستفعلن مستفعلْ وهو وزن تأتيه . فالبيت فى نفسه لا شك موزون . وإن كان معيباً باعتباره فى القصيدة . وأما قولك إنّ كلمة تأتيه توجب أن تكون القافية منصوبة أى جددا وذلك لا يتساوق مع بقية القوافى ، فهو خطأ ظاهر يدركه تلاميذ المدارس الابتدائية الذين ليس لهم بعلم النحو إلا أحدث عهد . ذلك أنّ جملة تأتيه تقع صفة لأنعم المرفوعة وكلمة جدد صفة ثانية لها فتكون مرفوعة أيضاً كما تقول : لى شعر أُعجَب به ركيك . فتكون كلمة ركيك مرفوعة على أنها صفة ثانية لشعر (راجع باب النعت فى الجزء الثانى من كتاب الدروس النحوية للمدارس الابتدائية) . وأما استعمالك كلمة التصحيف فى معنى التصحيح فهو استعمال يأباه ذوق من به مُسْكة من أدب أو له أضعف فقه للمعانى اللغوية . ألا فاعلم أيها الشاعر المجيد أنّ التصحيف قرين التحريف وكلاهما يؤدى معنى العدول عن الصواب لا الرجوع إليه ، فالتصحيف تبديل يتناول إعجام الحروف أو إهمالها . مثل جعل الجيم حاء أو الباء ياء .

والتحريف وضع حرف مكان آخر . وكلا التصحيف والتحريف من عيوب النُّساخ ومن أسباب فشوّ اللحن والعامية . ولست أدرى على أى مجاز بنيت استعمالك التصحيف فى معنى الإصلاح وتصحيح الخطأ

على أنّ مقدمة حضرة الشاعر المبرِّز ضعيفة ركيكة ، بالغة فى الرِّكة مبلغاً لا يناسب ما لحضرته من مكانة فى نفوسنا ، ومن شعر قرأناه قديماً وكان له قبول فى ذوقنا. فحضرته يستعمل كلمة « التحوير » فى معنى تبديل كلمة بأخرى مع أنه لو راجع كتب اللغة التى يكاد يختنق بكثرتها موظفو القسم الأدبى بالمكتبة لوجد أن تحوير الثوب تبييضه والحُوارىّ من الدقيق أبيضه والحَواريّون أصحاب المسيح سُمّوا بذلك لبياض سرائرهم . فليس من معانى الكلمة تبديل شىء بآخر . كذلك يقول فى معرض الكلمات التى « حوّرها » (إذ قد تختلف هذه الكلمات فيما لو وجدت نسخة أخرى . ولكنا زدناها لتعطى صورة تكميلية . . . ناقلين صفحتين كاملتين من النسخة الفوتوغرافية)

فانظر — رعاك الله — إلى مثل هذه العبارات والكلمات الأعجمية فى مقدمة ديوان لشاعر من فحول الشعراء . فكيف تطمئن نفس القارئ بعد ما رأى إلى حسن الظن بالمجهود العنيف الذى بذله حضرة المصحح « حتى كادت تزهق النفس مما تكابده من السأم والملل »

أما الأغلاط التى اتفق لى أن أعثر عليها فى هذه النظرة العَجْلَى فهى غلطات تدل على الإهمال الزائد الذى يصح معه أن ندّعى حرمان الكتاب من العناية كلها أو أكثرها . وليس أدل على الإمعان فى الخطأ من وقوعه

فى « إصلاح الخطأ » فقد ذكر فيه أن « تدمل » بضم التاء ص ٤٧ س ٩ صوابها « تدمل » بفتحها . والواقع أن الكلمة لا وجود لها بهذه الصفحة لا فى أولها ولا فى آخرها ولا فى صلبها ولا فى حاشيتها . كذلك وقع اختلاف فى البيت الذى ورد فى المقدمة وكان موضوع كلمتنا . فقد روى فى المقدمة « وأنعم » ثم روى فى قصيدته ص ٢٥٤ فى آخر أسطرها « ونعم » . ونحن نترك تتبع الغلطات لمن أخذوا على أنفسهم محاسبة دار الكتب على أغلاطها الكثيرة فيما تخرجه للناس من مطبوعات راجين أن يكون لها شأن آخر فى عهد العالم الهمام حضرة صاحب العزة أسعد بك برادة مديرها الجديد

٣٣

مراجعات فى الآداب والفنون

قرأت فى عدد من أعداد البلاغ القريبة إعلاناً لكتاب بالعنوان السابق وحين علمت أنه للأستاذ عباس العقاد هرولتُ إلى شرائه لأنى واثق أن أجد فيه تلك البحوث الطريفة والآراء الناضجة وأثر الفكر الطليق الذى نجده فى كل ما يخطه قلم الأستاذ

صاحب الكتاب صديق وقد نلتقى فى اليوم غير مرة، فلم أتلكأ فى شراء الكتاب حتى يُهديه إلىّ لأنى أعُدّ الهدية المشكورة منه أنه لم يبخل على القراء بهذه الأفكار التى يقول عنها بحق إنها بناته وبنوه، فيكفينا منه أنه جلا لنا هذه العرائس وزيّن لنا حياتنا الأدبية بهؤلاء البنين

لقد أتى الأستاذ بتمهيد علّل فيه تسمية كتابه (مراجعات) فشرح لنا بفلسفته الواضحة أنه لم ينقل هذه الآراء من كتاب ولا قلّد فيها باحثاً من السابقين وإنما هى خواطر لَمَعَتْ فى ذهنه فما زال يُذْكيها بالمناقشة ومراجعة الفكر حتى صارت كواكب ثابتة الضوء ظاهرة البهاء . يقول الأستاذ فى مقدمة كتابه (فليس يسرنى أن تُنمى إلى أفكار كل من أقلّتهم هذه الأرض من الأدباء والحكماء والعلماء إذا كانت غريبة عنى بعيدة النسب من نفسى) . ثم خشى أن يعدّه الناس معجباً بنفسه تيّاهاً بآثاره . أما أنا فأرى

أن التيه والإعجاب هما منتهى التواضع ممن يعد مخترعا لكل فكرة ذكرها أو رأى أدلى به . فليبالغ المخترعون فى الإعجاب بأعمالهم وليكثروا من التجنّى والدلال علينا ولنهنأ نحن بما ظَفِرنا من لذة وراحة فى الاستمتاع بآثارهم . وإذا كنا لا نعدم الزهو وتصعير الخدّ من « مصنّفى » كتب المختارات فلنقبل شاكرين كل ما يكون من جبابرة العقول أصحاب الفكر الحر الذى يتجلى فى كل سطر من كتاباتهم .

إن عنوان الكتاب ليدلّك على موضوعه فهو يحوى ألوانا شتّى من الأدب الواسع الأطرف ، فمن خيال فى جمال الزهرة ، إلى تفسير لمعنى الجمال إلى دراسة طريفة لمثل بشار ، وابن الرومى ، إلى نعى لفقيد الألحان والأغانى السيد درويش نعيا يُذْكى القلوب أسى ، ويبكى العيون دما ، ويدل على الوفاء والتناهى فى عرفان الجميل ، إلى غير ذلك من كل ما نعهده جميعاً فى الأستاذ العقاد من طَرَافة فى كل ما يجرى به قلمه .

المؤلف شاعر وناثر ، وكتابه هذا من آثاره المنثورة . ولكنك لا تستطيع أن تمنع الشاعر أن يكون شاعراً فى كل ما يقول . أليس من الخيال السابح فى علياء الشاعرية قوله فى وصف الزهرة (وأول ما تدل عليه الزهرة النضارة ثم اللهفة التى ترافق فى الذهن ذكرى زوالها السريع فكأنما هى بشكلها النضير الرقيق رمز إلى فرصة العيش التى تنادى الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراقها) . وقوله فى وصف صحراء (ألماظه) الموحشة على حدود مصر الجديدة العامرة (تبدو للوهم كأنها الوحش المكبوح أحدق به نطاق

الأسر من كل صوب أو كأنها صحراء بيتيَّة صناعية أعدها الناس حول ديارهم لإيحاش أنفسهم من فَرْط الأنس بالعمار)

إذا كان الأستاذ العقاد فى غنى عن هذا القول فإن القراء لاشك منتفعون بكتاب يقدَّم لهم تقديماً صادقاً بريئاً . وكنا قد وقفنا أنفسنا على خدمة الأدب — إن قبلها منا — لبَهْرَجة [1] باطلة ، والإشادة بفاضله

(١) البهرجة التزييف أى اظهار بطلان الشىء

٣٤

دار الكتب الملكية

كنت أختلف إلى دار الكتب وأنا طالب منذ ستَّ عشْرةَ سنة . ثم أنا اليوم أدخلها فى الضرورة القصوى والحاجة الحافزة . فهل غيَّرت الستةَ عشرَ عاماً من أحوال دار الكتب ؟ لا ، بل إن كل ما حدث من التغيير والتبديل والإحداث والتجديد ، بعد طول النقد وكثرة الملاحظة ينحصر فى مواعيد الفتح والإغلاق وأيام الراحة والعُطْلة فبعد أن كانت على مثال دواوين الحكومة تفتح فى الصباح وتغلق فى الظهيرة وتعطّل يوم الجمعة صارت تستمر إلى الليل وتعطل يوم الاثنين ، كذلك مما تراه من التجديد فيها تلك الحكم التى علقت على حيطانها إلى جانب (ممنوع البصق) من مثل قولهم (الوقت من ذهب) و (حديث اثنين يؤذى ثالثاً) و (إذا قلت لصاحبك اسكت فقد لَغَوْت) و (رأس الحكمة مخافة الله) و (نزع « الفيش » من مواضعه متلف له وموجب للتخليط فيه)

هذا كل ما حدث من التغيير واهتدت إليه آراء المصلحين من التنسيق والإبداع . اللهم إلا ما كان من أمر مكتبة التلميذ فإننا لم نرها بعد .

فأما وسائل الترغيب فى المطالعة من الإسعاف بالطَّلبة وتيسير البحث عن الكتاب المطلوب ، فتلك مُعْضلة بقيت حيث هى من حين كانت الدار .

الفهارس وهى أولى الأشياء بالعناية فى دور الكتب تراها فى مدخل حجرة المطالعة الكبرى فى مكان مظلم يعوق ضعيفَ البصر عن متابعة البحث لولا بعضٌ من النور الصناعى هناك . ثم هى فى أدراج ضيِّقة متلاصقة لا يتيسر مع تلاصقها أن يبحث اثنان فى درجين متجاورين . ولذلك ترى الباحثين يتعاقبون على الفهارس وقد يطول من أحدهم الانتظار على غير جَدْوَى لأن سابقه ضالّ لا يجد له هادياً . . فهلاّ راعت إدارة الدار هذا الزحام الشديد على الفهارس ففرّقت بينها ثم جعلت منها أمثلة متعددة حتى لا يحتاج باحث إلى انتظار غيره . ولقد تحسن الإدارة لو علقت على الحائط فى حذاء كل فهْرس رُقعة كتبت فيها بخط كبير نوع هذا الفهرس

وإن الأمر الذى كنت أشكوه قديماً وجدت اليوم كثيرين لا يزالون يشكونه من أمر هذه الدار ، وذلك هو الغموض فى كثير من شؤونها والعقبات الجمّة فى سبيلها ، ففى أول عهدى بها كثيراً ما كنت أقصدها وأعود من غير أن أُوفّق إلى كتاب أستعيره حتى درستُ أحوالها وكشفتُ غوامضها وذاعت لى أسرارها . وقد ذكّرنى بذلك أنى كنت منذ أيام ألوم صاحباً لى لتركه تمضية بعض فراغه فيها فقال لى إن دخولها علم يحتاج إلى دراسة لم أوفّق إليها بعد . فذكرتنى هذه الكلمة بما قام فى سبيلى من عقبات تغلبت عليها قديما بقوة الشغَف الذى كنت أطلب به العلم وأستلذ به كل ما أعانى فى سبيله

فلم لا تميط الإدارة اللثام عن تلك الطلاسم حتى لا يُحجِم المحبون للعلم عن دخولها بدعوى وُعورة سبيلها ؟ هل يصعب عليها أن تختار موظفاً

واسع الصدر ، باشّ اللقاء ، نشيط الحركة ، مبجِّلا لأهل العلم ، يكون بجانب الفهارس يستهدى برأيه كل باحث . . .

كذلك ألاحظ أن عيباً فى دار الكتب لم يحاول أحد ممن تعاقبوا عليها أن يتلافاه بالإصلاح . وهو هؤلاء السعاة الذين يُحضرون الكتب للقراء . فهم « رعاك الله » يجمعون إلى سوء الأدب ومظهر البؤس ورزوح الكاهل بأعباء الحياة ، استثقالا للعمل ، وكراهة للحركة ، وعمشاً وصمماً ، وهرماً وسقَماً . فإذا أتاك أحدهم بكتاب أحدث جَلَبة بحذائه الثقيل ، واهتدائه إلى مكانك بألف دليل . ووصل إليك وهو يَلْهَث تعباً ، ويترامى لَغَبَا . ثم رماك بالكتاب ، يصحبه السباب . فأذا وجدته فرَنجياً ومرادك عربىّ ، أو إنجليزيا وطلبك فَرَنسىّ . أحالك على المراقب ، ثم ولّى وهو هارب . وفى ذلك يضيع يومك فتخرج ولم تَشْفِ غُلّتك ، أو تصحح غلطتك أو تتلاف جَهلتك

ياعجبا ! يكون عمال الترام حملة شَهادات وشبانا أصحاء وتجد منهم الشركة حاجتها مع مشقة عملها وكثرة مخاطرها وتحرم دار للعلم أو للحكومة أو عمل شريف كهذا من مثل هؤلاء . والحكومة — والحمد لله — لاتضِنُّ على سعاتها وخدمتها بما يرضى حملة الشهادات فينا . فكيف لاتفكر إدارة هذه الدار أن تستبدل بهؤلاء الوَكَلة العَجَزة القعَدة شبانا متعلمين ، أيقاظاً فيما يُكلَّفون ، خِفافاً فيما يؤدّون ، لم تَحْنِ ظهورَهم الأيام ، ولم تقطّب جباهَهم الآلامُ والأسقام

٣٥

شيخ الإسلام

وظائفه ورواتبه

أشهد أن الإحصاء عمل شاقّ لأنه ليس (كما كنت أظن) محض أرقام ترصد، وأشياء تعدد، بل قد وجدته أمراً يحتاج إلى خفة الحركة ولطف المدخل، كما يتطلب حبّ البحث ورغبة الاستطلاع، والصبر على الاستقصاء والاستقراء

ولقد عانيت كل ذلك حين قام بنفسى منذ شهر أن أحيط علماً بوظائف شيوخ الإسلام فى مصر ورواتبهم. فاقتضى ذلك منى أن أدخل وزارة الأوقاف فأخرج منها إلى المالية ثم أستريح ساعة عند الرمالىّ ثم استأنف السير إلى مخبز الشباسى، وأن أذهب فى يوم إلى مسجد الحنفى ثم إلى السيدة زينب، وأن أقصد إلى القرافات من باب الوزير، إلى المجاورين، إلى الإمام، إلى زينهم، لأتعرف المدافن التى وقف أصحابها شيئاً على شيخ الإسلام واشترطوا شروطاً من مثل قراءة الفاتحة أو سورة يس أو إطعام الفقراء فى المواسم والأعياد. كذلك اقتضى تطوافى أن أمرّ بهذه الوزارة الصغيرة التى فى شارع الشيخ عبدالله بعابدين وبها كل ما يكون بالوزارات من رؤساء ومرءوسين وصيارفة ومحصلين وسعاة. بل إن شئت فقل إنها حكومة أخرى فى داخل الحكومة المصرية لأن الحكومة إذا كانت

تدير أربعَ عشرةَ مديرية فإنها تدير أربعةَ عشرَ وقفاً وُكِل إلى شيخ الإسلام أمرُ نظارتها . وإلى القارىء بيان ماوصل إليه جهدنا الضعيف بمعونة الأصحاب ومساعدة ناشرى الحقائق

٤٠٠٠ أربعة آلاف جنيه مصرى من وزارة الأوقاف العمومية

٢٠٠٠ ألفا جنيه مصرى من وزارة المالية المصرية

٣٠٠ ثلثمائة جنيه مصرى فى شهر رمضان لنفقة منزل شيخ الإسلام وإطعام من يؤمه من فقراء (من وقف قاسم باشا)

٣٠ ثلاثون جنيهاً مصرياً فى كل رمضان لقراءة درس حديث بالسيدة زينب

٦٠٠ ستمائة جنيه سنوياً نظير إدارة قسم الوعظ والإرشاد من وقف المنشاوى

٦٠٠ ستمائة مليم ! ! شهرياً من مقرأة الحنفى

١٩٥ مائة وخمسة وتسعون مليما شهرياً لقراءة الفاتحة بالسيدة زينب

٥٩ أقة خبز يومياً من الأوقاف الخيرية وحدها

٢٠ جنيهاً شهرياً لرياسته السادة المالكية

١٢٫٥ جنيه بدل ركوب شهرياً لحضور مجلس الأوقاف الأعلى

١٨٤١ فداناً موقوفة (عشرة فى المائة من إيرادها نظير إدارتها)

١٢٠٠ جنيهٍ سنوياً أجرة عقار موقوف (عشرة فى المائة نظير إدارته)

٢٠ جنيهاً بدل كسوة التشريف كل سنة

٣٦ جنيهاً مرتب هيئة كبار العلماء

بعد كل هذا نعترف بالعجز عن الاستقصاء لأننا لم نستطع الوصول إلى إيراد مشايخ الإسلام من الأوقاف التى يديرونها لأن ذلك السر يصعب علينا الوصول إليه . على أن بعض من تولّوا وكالة وزارة الأوقاف فى يوم من الأيام نَفِسوا [1] على شيخ الإسلام هذا الدخل فاستطاعوا بوسائط لا تتمكن منها أن يعرفوا دخله من هذه الأوقاف الأربعة عشر وبضمه إلى راتبه من الحكومة والأوقاف العمومية صار دخله فى الشهر (٩٦٥) جنيهاً شهرياً أى أحد عشر ألفاً ونصف ألف فى العام

فلا جزى الله هؤلاء الواقفين خيراً لأنهم أرادوا أن يشغلوا شيوخ الإسلام عن الدنيا فشغلوهم بها ، وأرادوا أن يَكْفُوهم مؤونة السعى للرزق فألهَوْهم بتدبير هذه الثروة الطائلة ، وأحبوا أن يحرّروهم من أسر الفقر فجعلوهم يستأسرون فى سبيل هذا الإيراد الضخم ، ورغبوا أن يجعلوهم مظهر البذل فى سبيل الله والتصدق على أبناء السبيل فحمّلوهم وِزْر البخل والحرص، لأن كثرة المال قد تكون مُغْرية بالتقتير . . وقصارى القول أنهم أرادوا بأموالهم خيراً فأبى الله لها إلا الشر

وبعد فإنى مشتاق أن أرى تلك القصعة التى يقال إن قاسماً باشا وقف عشرة جنيهات على صنعها وفرض أنها تتجدد كل عام . فأين هى ؟ أم أين قُراضتها ؟ ؟ . كما أنى أتمنى أن أرى المساواة (أو الديموقراطية كما يقولون) تبلغ بشيخ الإسلام أن يجلس فى مقرأة الحنفى إلى جانب هؤلاء الفقراء المعوزين من حملة كتاب الله

---

(١) نفس عليه الشىء استكثره ولم يعده أهلا له (باب فرح)

٣٦

وحيد الأيوبى

وحيد بك اسم لم يكن من الضرورى أن نعرفه، ولا أن نشغل أنفسنا بوعيه وألسنتنا بالتحدث عنه، ولكن شاءت الأقدار أن يكون هذا الاسم موضوع الفكاهة ومدار النكتة، وأن نذكره حين نذكر التعويل على غير طائل، والإشاحة بالسيف على غير منازل، ومكابرة الأواخر، والدعوى على الأوائل.

وشاء الإلحاح من وحيد بك والحياء من رجال صحافتنا إلا أن يشغلانا باسم وحيد وبما يَهْرِف به وحيد، وما يتنادر به وحيد، وما يضحكنا من وحيد، وما يزعجنا به وحيد، من إنكار وجحود، وما نراه مما يدّعيه حرصاً على اللغة لم نعهد مثله من ناشرى لوائها مثل الخليل وابن دُرَيْد والأصْمَعِيّ يحدثوننا عن ظَرفه، وحلاوة سُخفه، ولطفه فى عنفه، وقوته فى ضعفه. ولكننا لانزال نَعْجب كيف تلتقى تلك مع هذا العناد واللَّجاج؟ ولكن لاعظيم على قدرة الله، فاللفظ قد يجمع الضدين معناه، مع وَحدة مبناه. فليكن وحيد نَبَطيّاً ولغوياً، وليكن جُحا زمانه، وأَصْمَعِيّ أوانه. ولينظر فى كتب اللغة من غير أن يعرف الفصل والباب. أو يتذوّق من النحو والصرف القشر أو اللُّباب.

وما دامت صحفنا هى التى تنزل الناس منازلهم وتوزّع عليهم ألقابهم

فليكن وحيد بك السيد اللغوىّ الحجة الثَّبْت قريع العلماء ورُحْلة الأدباء وحَبْر دولته ونِحرير أمته

ولو عرف وحيد معنى كلمة لغوىّ ما رضى لنفسه أن يدعى هذا الوصف قبل أن يستتم آلته ، ويعدّ له عدته . ولا رضى أن يفهمه فهم العوامّ ، الذين يَصِفون به كل متَفَيْهِق ثرثار ، ومُدَّعٍ هتّار

والحق أن اللغوىّ هو من عرف فقه الاشتقاق ومعانى الصّيغ وقياس الجموع وقواعد النسب وطوارئ الإعلال والإبدال . ودرس علوم البلاغة فعرف طرق التجوز وعلاقاته ، لأن واضعى كتب اللغة رحمهم الله قد فرضوا ذلك فى كل مطّلع على كتبهم . فهم قد يهملون القياس ثقة بمعرفة الباحث له . ويكتفون بالأصل ليُحمل عليه الفرع . لذلك ترى الجهّال من الباحثين فى تلك الكتب ينكرون أحيانا أفصح الألفاظ وينْفُون أعرقها نسبا وأكثرها عُروبيّة لأنهم لم يجدوها فى الكتب التى بأيديهم . وقد نعرف رجلا من هؤلاء جاءنا يوما ينكر المضارع من حول (باب فرح) لأنه لم يره فى القاموس المحيط . ونظائر ذلك كثيرة تصدر عن كل من تصدّى للغة والكلام فيها بعد أن اقتنى القاموس وشرحه ولسان ابن منظور ومخصص ابن سِيده . ولو كان اللغوىّ من استطاع أن يقرأ كتب اللغة ويصبر على استيعاب صفحاتها لوجب أن يكون تلميذ الابتدائية لغويّا ثقة إذا اتفق له مثل الغرام الذى كَبّ وحيدا عليها لليدين وللفم . فهل استوفى سعادته هذه الشروط (الأشراط والشرائط والشُّرط والمشاريط على رأيه) حتى يتصدّر فينا للفَتْوى ويجلس بيننا للحكم .

سبحان مقلب الأحوال ومصرّفها فقد بدأ وحيد يكتب منذ سنتين أو ثلاث فكنا نرى فى كلامه المثل الحىّ للنبطيّة التى حدثونا عن أهلها أنهم قوم ينزلون بين العراقين (العربىّ والفارسىّ) فاضطربت فى آذانهم الإبانة والرّطانة وكانت لهم لغة لافارسية ولاعربية، ولا شرقيةولاغربية، وفات المتقدمين أن يضربوا لنا أمثلة منها. فكانت إرادة الله أن نعثر فى كلام وحيد بك على تلك الحلْقة المفقودة فى تاريخ الأدب. وأن نرى كيف تخلّقت الأعجمية فى العربية. وكيف دبّ الفساد، فى أنفس التلّاد.

وحيد هذا هو الذى يستعمل الأساليب كما فرضها النحاة قبل أن يصقلها النطق ويُشَبّه له أنه يكون أبرّ باللغة حين يستغنى بالأصل عن الفرع، ويعدل بتعداد الآحاد عن ذكر الجمع. ولولا بقيةٌ من حياء لجعل (قَوَل) فى موضع قال و(استقْوَم) بدل استقام.

وحيد هو الذى يقول (السلطة الأنجليزية الكائنة فى السودان) كما تقول العوام منزلى الكائن بشق الثعبان. ويقول (إن حكومة السلطان حسين أخشت على الحجيج ثمن كل طعام كان له وجود) ويقول (هل إن رئيس وزارة مصر من عمال الإنجليز) فيؤكد بأنّ فى موضع الشك بالاستفهام. ويقول (هؤلاء المكتشفون والمخترعون أولئك هم الذين يمتازون بأعمالهم) ويقول (طالما والله قدسترنا معايب لمن كان القدر فيها أن يكون هو رائسا). وهكذا من الكلام الذى هو برُقَى الحيات والعقارب أشبه منه بكلام يخاطب به قراء الصحف. ولولا زهادتنا فى هذا الهُرَاء، واعتقادنا أن كلمة واحدة منه كافية لهدم جبل عال وطَوْد أشمّ، لاشَنّ بال ومتصايح أبكم.

ولولا أننا لانريد القراء بكثرة ما ننقل تعريفا بكاتب أراد أن يكون جُحا اللغة وبُهْلول[1] الصحف ، لولا كل ذلك لملأنا صفحات ، من هذه السخافات.

وحيد هذا هو الذى ينقلب بعد ذلك لغويا متشددا لاتعجبه لغة العلماء ولا أساليب الأدباء ويُعنى بتعقّب الحكومة فى كلمات جنينة الحيوانات وحديقة الأسماك وكوبرى قصر النيل والهويس ، والبوليس . ويظن أنه قد أبلى فى خدمة اللغة وأن المعلمين فى المدارس على كثرتهم لم يؤدّوا خدمته ولم يبلغوا غايته ، ثم يضيف إلى ذلك ما يحيى من موات ، وينشر من رُفات . لن تقوم له قائمة إلا فى فمه ، ولن يتحرك بكتابته غير قلمه . أظن العَيْهُور ، والشَّيَنْقور . والطُّفَيْشَل ، والعَمَيْثَل . والجِرْدَحْل ، وزمن الفِطَحْل . ألفاظا تغنى شيئا فى عهد حضارة بنيت على الاقتصاد والإيجاز والحذف والبتر ، حتى فى الثوب والشعر .

فليرحنا وحيد — أراحه الله — من قَذَى العين وشَجَا الحلق — وليُشق بذيل العَفَاء مسحوباً على عُنْجُهيّته ، وكلة القضاء حاقّة طُمْطُمانيّته . ووالله ثم الله لو أن هذه الأعمدة التى استوعبها من الصحف وقفت منذ عهده بالكتابة ومحنتِنا بقراءة كلامه على فضيلة تنشر ، أو محمدة تذكر ، أو دين ينبه الناس إلى مَعَادهم ، ويردّهم عن جحودهم لامتلأت الدنيا فضلا ، وطُبّقت عدلا .

---

(١) الضحاك

٣٧

المجمع اللغوى

كم ذا بمصر من المضحكات ! وكم بها من الألقاب والأسماء ، وكم بها من المظاهر الجوفاء ، وكم بها من نيات بلا عمل ، ومساع لا تبوء بغير الفشل. وكم بها من بدء بلا غاية ، ومقدمات كانت المفتتح والنهاية.

غَبَرتُ [١] أيام نشأتى أقرأ فى الصحف والمجلات بيانَ حاجتنا إلى مجمع لغوى يحيى من اللغة مَوَاتها . ويضم شتاتها ، ويُثير دفينها ، ويطلق من الإسار سجينها . ويكون مَثَابةَ الباحثين ، وملتقى المنقبين ، بل يكون عُكاظ جاهليتها ومِرْبَد إسلامها [٢] . وكم كتب فى ذلك الكاتبون ، وأفاض الباحثون حتى لظننت من عظيم ما أملّوا ، وكثير ما عوّلوا ، أن هذا المجمع سيَهَب الألسن لكل عيّ . ويكشف اللِّثام عن كل خفىّ ، وأرانى الوهم وخيال الطفولة أنى مستطيع إذا غمض علىّ أسلوب أو تكاءدتنى كناية أو أشكل علىّ بيتُ شعر أن أقصد إلى هذا المجمع فيزيل لبسى ويريحنى من حيرتى . والآن وقد تقلبتُ من الطفولة ، إلى الفتوة ، إلى الشباب ، إلى مغازلة الكهولة [٣] لا أجد فى المجمع أملا من آمالى ولا رغيبة من رغائبى .

حقًا إنه تألّف وتكوّن وتجمّع ، وما شئتَ من مترادف ومتوارد لهذه الألفاظ ولكنه لم يكن منه حقير ولا جليل ولم يستطع أن يدلّنا

---

(١) بقيت (٢) المربد فى الاسلام مثل عكاظ فى الجاهلية وكان بالبصرة

(٣) مغازلة الكهولة مناهزة الأربعين

على حياته بكلمة فاه بها أو نيّة اتجه إليها أو وسيلة لنهوض اللغة دل عليها . ولعلك لاتعجب إذا علمت كيف تألّف .

اختير أعضاؤه من كبار القوم فلم يتّفق له إلا كل هرم يدبّ دبيباً . قد ضعفت منّته ، ووهنت قوّته ، وكلّت عينه ، وصَمّتْ أذنه ، وسئمت نفسه ، بل مات حسه . وكيف يكون من مثل هؤلاء ، نفع أو غَناء ؟ . كذلك حُشد فيه كل من ناء بوَقْره من الوظائف الحكومية فلا يكاد يجد من وقته ساعة فراغ يقضيها فى هذا العمل الجديد . وإن وجد الفراغ من وقته لم يجده من باله وفكره . ثم ضمّ هؤلاء إليهم أشتاتاً من الناس ، من كل عامىّ يتشبه بالعلماء . لم يتجاوز فى دراسة الأدب ألفه إلى الباء . لكنه مولع بالمظهر ومستطيع بلطف مدخله أو شدة إلحاحه أن يكون له بين هؤلاء الفضلاء مكان . كذلك انضم إليهم من ليس يملك دليلا أو شهادة على تعلمه فهو يريد أن يتخذ من عضوية المجمع أكبر شهادة يسجلها على بطاقته . لا بل لقد احتاجوا إلى أن يكون بينهم الفَكِه ، حلْو المحاضرة ، لطيف النوادر . فكان من يملك هذه الشفاعة عضواً فيه

ولسنا ننكر أن بين أعضاء المجتمع فِتيانَ همة وأهل فضل . ولكن هؤلاء أحد رجلين ، رجل لايستطيع أن يعمل وهو يجد حواليْهِ انصرافاً وإعراضاً يَخْضُدان من شوكته ويُقْعِدان من همته . وآخر قادر على العمل ولكنه أنانىّ لايريد أن يشرك إخوانه فى ثمار مجهوده الذى يُفْنى فيه بياض نهاره وسواد ليله فيصبح بعد ذلك سراً مُذاعاً ، ورأياً مُضاعاً يستطيع كل أن يدّعيه لنفسه . لذلك نرى من أعضاء المجمع من يعملون بعيدين عنه ليكون لهم فخر عملهم .

وبعد فإنى أسأل : هل فى المجمع ذَمَاء، أو بقى فى وجوه أعضائه ماء . أو التقوا هذا العام ولو للوداع ، أو دعا فيهم إلى الإصلاح داع . وإلا فكيف حملوا هذه الألقاب فارتاحوا لوَسامها ولم يتحملوا ميسَمها . ورضعوها أفاويق [1] ثم اعتسفوا بها الطريق

لو كان لى من أمر هذا المجمع شىء لبعثت هؤلاء الأعضاء من سُبَاتهم ثم أجليتهم عن كراسيهم ، ثم طلبت بين سمع مصر وبصرها كل ذى نُعَرة للغته ، غير مُدِلّ بمكانته ، ولا مَزْهُوّ بمعرفته . جامع إلى ذلك الهمة الحذّاء والنهوض بكل بَزْلاء [2] . ثم عظّمت من شأن المجمع ورفعت قيمة أعضائه بين الناس وجعلتهم معرضين للعزل إن لم يكن منهم خدمة صادقة . ثم أوجبت على كل عضو أن يحاضر إخوانه — ولو مرة فى العام — فى شأن كتاب مَطْوىّ يرى من الفائدة نشره . أو ابتكار طريقة لتهذيب المعاجم اللغوية وتسهيل تناولها أو تحقيق مسألة ضلت فيها الأفهام ، واضطربت الأقلام . أو وضع لجملة مصطلحات تَوفَّق إليها فيما يكون بسبب منه من العلوم . أو غير ذلك مما يراه وسيلة من وسائل ترقية اللغة وما يكتب بها . كما ينبغى أن توَجَّه إلى المجمع مطالب يتعاون فيها أعضاؤه حتى تتم فى أقرب وقت وعلى أَحسن حال .

بذلك أَرجو للمجمع نفعاً وأُؤمل للغة رقياً وصلاحا

---

(١) هي جمع أفواق وهذه جمع فيقة وهي اللبن الذى يتجمع في الضرع بين الحلبتين . والمراد أنهم تمتعوا بخيرها طويلا (٢) البزلاء الشدة ويكنى بالنهوض بالبزلاء عن عظم الهمة

٣٨

في المعرض الزراعي الصناعي العام (١)

أليس عجيبا أن أَشِذّ وحدي بالذم وقد أجمع الناس على الثناء ؟ أوليس عجيبا أن يكون نقدي منصبّا على فؤاد بك أباظة ذلك الرجل الذي أجمع الناس على ذكائه وحرصه على الكمال . أليس مدهشا أن يطلعني الله بتلك النظرة العَجْلَى على ماندّ عن حرص فؤاد بك وهو الذي فكّر ودبّر . وقضى الأشهر ، يقلب الرأي ، ويمحص الفكر . ويجمع الأطراف ، ويستتم الأطراف . حتى كان المعرض مدينة حافلة بل حاضرة كبرى . ففيه الميادين والحدائق والملاهي ، ومشارب القهوة ، ومضمار السباق ، والمصرف . والبرق ، وكل مايخطر بالبال من متممات المدن ولوازم العواصم . ولكن ليس فيه تلك اللازمة التي يستلزمها دين الدولة وشعار الأمة وحاجة الجمهور الأعظم فيها وهي المسجد !!

هذا مصور المعرض في يدي أرى فيه تفاصيل ما بالمعرض ولكني لا أرى فيه مسجدا ولا أثراً لمسجد

وإني لأحدثك أيها القارئ عما جال بخاطري على أثر هذه الملاحظة . لم يمر بخاطري أن يكون مدير المعرض قد تعمد أن يهمل أمر الدين في معرضه لأنه رجل لامطعن في إيمانه . ولم أفكر أن أتهمه بالإهمال لأني أعلم أنه

---

(١) هو المعرض الواسع الاطراف الشامل لجميع المنتجات المصرية من زراعية وصناعية الذي أقيم في مارس وأبريل سنة ١٩٢٦ بأرض الجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة وكان أعظم معرض أقيم في مصر . وقد استحق أعجاب حضرة صاحب الجلالة الملك فزاره مرتين

قد قضى الليالى ذوات العدد مفكرا فيما يكمل به هذا العمل الجليل . ولكنى للحال لمعت فى ذهنى هذه الكلمة الحق وهى (الكمال لله وحده) . ففؤادبك غير ملوم لأنه بذل الجهد الذى لاطاقة لإنسان بمجاوزته ولكن لله فى كل شىء آية تدل على أنه المتفرد بالكمال (سبحانه لا إله إلا هو)

ثم كان منى أن شكوت إلى بعض من لقيته من أصحابى هناك عدم استطاعتى صلاة العصر فدلّنى على مكان زعم لى أنه مصلى فسعيت إليه فأذا به سقيفة من الخشب ضيقة فيها ثلاثة مراحيض وأمامها موضع لايسع عشرة من الرجال متراصين وإلى جانبه ثلاثة صنابير للوضوء . كل ذلك فى ساحة لاتزيد على عشرة أمتار مربعة . ولو أنى لم أعلم بوجود هذا المصلى لكان خيرا لفؤادبك . لأنى كنت أحمل أمره على النسيان الذى لاينجو منه إنسان . فأما وقد فكر فى أمر المصلين فإنى أقول له : ماقيمة هذه المراحيض التى لاماء بها ولاورق (إنها ليست بعربية ولافرَنجية) . وما شأن هذا المصلى الذى لم تبين فيه القبلة ؟ ثم ما غناء هذه المساحة الضيقة لهؤلاء الألوف الذين يزورون مدينتك الكبرى

إن معرِضك يافؤادبك قد توافرت فيه شروط إقامة الجمعة لأنه مصر جامع للناس ، وفيه نائب لولىّ الأمر يقيم الحدود [1] فكان من حقه أن يكون فيه مسجد وفى المسجد منبر وللجماعة إمام ، وعلى الجملة كان ينبغى أن تمثل فيه وزارة الأوقاف إلى جانب سائر الوزارات التى مُثِّلت فيه

---

(١) كان بالمعرض نقطة شرطة

٣٩

الزواج بالإعلان

بدعة من بدع العصر الجديد، ومشرب من مشارب المدينة الحديثة، وخدمة من خدمات الصحافة الأوربية قامت تؤديها فينا مجلة « ألف صنف »

وما كل بدعة يجب أن تقابل بالنكر، ولا كل لون من ألوان المدنية يحسن أن يواجه بالمعارضة. بل يجب أن يكون للدين والعقل حكمهما، وأن تُنتظر كلمتهما قبل البتّ بالرضا أو الكره، والاستحسان والاستهجان..

لست من طلاب الزواج حتى أتتبع مجلة « ألف صنف » ولكنى أجيل فيها النظر حينا بعد آخر لأرى شباننا وشوابنا إلام تتجه رغبتهم؟ وفى أى صورة تتمثل سعادتهم. ولأعرف مقدار فهمهم لحرمة عاداتهم، واستمساكهم بأهداب دياناتهم. فأذا بى أرى فى مطالبهم وما يتقدمون به من مؤهلاتهم مايقوم حجة ناطقة بجهلهم جميعا معنى الزواج والسعادة به. فهذا طامع يَشْرَهُ إلى خير مأمول، وآكل يتحلّب فمه لأهنأ مأكول. وهذه جَدَّة تلوّح بالمال إلى مثل حفيدها، وتحتكم فى ثروتها إلى مريدها. وهذا مفتون بمفاسد هذه الأيام فهو يطلب من زوجته أن تخضع لرأيه فى السفور فتصحبه إلى مسارح التمثيل ودور الصور المتحركة. وتلك أخرى عرفت هوى شباننا فى الخلاعة، واستهتارهم بضروب الشناعة. فهى تتقدم إليهم بإتقان أحدث الرقصات، وآخرِ فنون المعانقات والمخاصرات. وغيرها تكشف عن أسوأ النيات فتشترط فى عون الدهر ورفيق الحياة أن يكون من رجال الحربية أو «البوليس»

فكأنها لاتعده زوجها إلا حين يتهيأ للخروج من المنزل . ولا تفرح ببعولته إلا إذا سارت إلى جانبه وهو يجر سيفه ، ويهز كتفه . . وجملة القول أنى لم أر فى الرجال والنساء من فهم الزواج حق الفهم ولا من أدرك غايته تمام الإدراك . فرأىُ الرجال أنه طريق إلى المال ، ورأيهن أنه نوع من أنواع الوصال . .

ولو عرف الرجال شرف الغاية فيه لالتمسوا القانعة الراضية التى تعرف طاقة زوجها فلا تكلفه ما تباهى به جاراتها وصويحباتها . ولا تضطره بجَدْع الأنف أن يحشد حولها الجوارى والوصيفات حتى تتهادى فى وسطهن ، وتظهر محاسنها بقبحهن . وحتى تقطع الوقت بشتمهن وصفعهن ، وتتلهى بتنادرهن وتهانفهن[1] . كذلك يلتمسون النشيطة المعتملة التى لا تترك بيتها للخدم يفسدون أعماله ، ويعكسون أحواله . ويلوّثون نظيفه . ويسرقون ثقيله وخفيفه . كذلك يلتمسون الأم الرءوم التى ترى السعادة فى أن تبيع شبابها بيع السَّماح لأولادها ، فتذبل زهرته فى ولاية شؤونهم ، وغرس الفضائل فى نفوسهم . وتعهدهم فى السلامة والداء ، ورخاوة العيش والعناء

ولو اهتدت النساء إلى المقصد الأسمى من الزواج لالتمس من الرجال كل غنىّ بشرفه حريص على كرامته متمسك بدينه ، معروف فيه بحسن يقينه . ليكنّ آمنات خيانة العين وغدر القلب . وضامنات الإمساك بالمعروف أو التسريح بالإحسان . ومستودعات مستقبلهن ومستقبل أولادهن من يأبى إلا الكرامة لكل من يتصل به وينتسب إليه

(١) التنادر مطارحة النوادر « الفكاهات » . التهانف التضاحك

وقد بقيت كلمتا العقل والدين فى هذا الزواج بالإعلان . فأما العقل فلا يرى وسيلة أنجع من وسائل النشر والمراسلة تتجلى بها الحقيقة ويدنو البعيد بعد أن تحكّمت الخاطبة قديماً فى مستقبل الزوجين بالباطل تروّجه وتقشيه، والحق تطمسه وتخفيه . فهى التى تجعل المرهاء[١] ،حوراء[٢] ، والعجفاء[٣] ، لفاء[٤] . ومجهولة النسب ، بنت خير أَب . وهامة اليوم أَو غد[٥] ،غريرة[٦] حديثة العهد . كما تجعل العاطل كسوبا ، والسائل وهوباً . والمغمور الخامل ، كُلَيْبَ بْنَ وَائِل

وأما الدين فهو يجعل للمرأة حق اختيار الزوج فليس لوليها أن يضطرها إلى قبول من لا ترضاه . حتى لو كانت قاصرة فزوجها الولىّ كان لها الخيار إذا رشَدت أن تُمضى الزواج أو تفسَخه . ثم هو يجيز ما يحصل اليوم من تبادل الصور لأنه سوغ للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته . لما ورد من أن المُغيرة بن شُعْبة خطب امرأة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم انظر إليها فأنه أحرى أن يُؤْدَم بينكما

---

(١) المرهاء من ابيضت بواطن أجفانها (٢) الحوراء الشديدة سواد العين في شدة بياضها أو الواسعة السواد (٣) العجفاء الهزيلة (٤) اللفاء الممتلئة في غير سمن

(٥) يقال فلان هامة اليوم أو غد أى أنه كبير السن دانى الأجل

(٦) الغريرة الجاهلة الساذجة

٤٠
فى المرقص

هؤلاء شبان خِفاف ظِراف قد أقبلوا يتخلّعون فى مشيتهم، ويترامون فى خَطَواتهم، ويسرعون اللفتات، ويختلسون النظرات. وتلك شوابّ هِيفٌ غِيدٌ قد أقبلن يتهادين فى الحسن المصنوع من الألوان، والأصباغ كالدِّهان[1]. وقد انهزمت الطبيعة أمام التطبع، وعجزت الحقيقة عن مقاومة التصنع. وفسد الأمر، وأصلح العطار ما أفسد الدهر. وصار النُّبْل فى النساء أن تتقن إحداهن هذا التمويه، وتتلطف فى تلافى التشويه. وأصبح مقياس الذكاء فيهن السبق إلى طِرَاز من الزىّ، من نشر أو طىّ، وإرسال أَوْلَىّ. وعادت الشجاعة منهن فى الجرأة على الظهور بما لم يعهد ولم يؤلف، وهو منهن على أيّة حال مستطرف مستظرف. فاليوم ذيل يجرَّر، وغدا يشمّر. وهذا شَعْر يثنّى ويرسل ثم يُجزّ ويُفصل. وذاك كُمٌّ مقطوع، ثم هو غدا إلى الكوع أو البوع، وذلك ثوب اجتمعت سبعون رقعة فى حواشيه، ثم هو بعدُ مهمل لا شِيَةَ[2] فيه. وهكذا حتى صار التجمل والتزيّى هو موضوع النظر ومجال الاستحسان والإعجاب. وفسد الذوق فى الرجال فلم يَعُدْ يصرعهم طَرْف وسِنان، ولا خَصْر ظمآن[3]. ولا قَدّ يتأوّد، ولا خدٌّ يتورّد، ولا حسن يتودَّد...

استدار هؤلاء الشبان وتلك الشوابّ بالموائد التى حول هذه الحظيرة

(١) الأديم الأحمر (٢) الشية العلامة (٣) الخصر الظمآن النحيل

المعدة للرقص . وفى جانب من المكان اجتمع العازفون والعازفات فأرسلوا من النغم ماحسن وعذب وما هو إلا أن صدحت الموسيقى حتى رأيتُ هذه الحظيرة قد امتلأت بالراقصين والراقصات وقد استقبل كل شاب شابّةً فاعتنقا اعتناقا وقع فيه الساق على الساق ، والصدر على الصدر ، واستدار الذراع بالخصر . وصار كاهل الفتى لخد الفتاة كالوساد . وقبّل الفم الخدّ أو كاد

فوق التعانق لاصقَيْن كشكلتى نصب أدقّهما وضَمّ الشاكلُ

ثم جرت حركاتهما على إيقاع الموسيقى من جولان ، فى أنحاء المكان . وهز للأرداف ، وتحريك للأكتاف . وتدانٍ من الشفاه ، كحال المناجاه . وغير ذلك مما لا أسميه إلا فجورا ، أبى له أصحابه إلا ظهورا . وهذا هو العُهْر لا ما أخفيتَ وخبأت ، وصدق الحديث إذا لم تستح فاصنع ماشئت .

رأيت هذا المنظر مرات فلم ازدد له إلا إنكارا واستفظاعا لأنى رأيته مذبحة للحياء يراق عليها ماء الطُّهر وتزهق روح العفة . وأى بقية من هذه الشمائل تحتفظ بها نفس الفتاة التى ترضى بهذه الوضيعة على مشهد من هذا الملأ ومع غير حليل أو مَحْرَم (١) ؟

وكأنّ أنصار هذه الشناعة قد أرادوا أن يستروا جريمتهم فادّعوا أن فى هذا الرقص رياضة للأعضاء وتجديدا للنشاط وتربية للذوق بالتمشى مع الموسيقى ومتابعة النغم . ولكن كذبوا ولم يستطيعوا أن يبرروا باطلهم فى اشتراط أن يرقص الشاب مع الشابة . . . إن كانت الرياضة غايتهم فلم لا يقبل أحدهم أن يرقص مع الشَّمْطاء ، أو الشَّوْهاء . وَلِمَ لَمْ يكن من أوضاعهم

(١) الحليل الزوج والمحرم من الأقارب من لا يحل الزواج به .

أن ترقص الفتاة مع الفتاه ، وأن يعانق الفتى أخاه . فلا بد أن الغرض السيئ هو الذى دعاهم إلى ترويج هذا الفساد .

ولقد طالما فكرت فى أمر هـذه العادة فكان رأيى أنها أثر من آثار الوحشية القديمة بقى إلى عصرنا فيما بقى من سيئات الماضى ليكون دليلا على أن نفوسنا التى هذبها العلم وصقلتها التربية لا يزال بها أثارة من جاهلية آبائنا وبعض من وحشيتهم البائدة . ولعل سبب السكوت عن هذه العادة أن الناس وجدوا عليها الآباء ، ففقدوا فى مقاومتها الحَمِيَّةَ والإباء

إن كان لا بد لنا من جعل الرقص أحد مظاهر مدنيتنا وأنواع لهونا وترفيهنا عن أنفسنا فليكن منه هذا النوع الذى يعدّ تمثيلا صامتا تؤدّى فيه الإشارة بالأيدى والأقدام ، ما يؤديه الكلام . فمن تمثيل للسكر والعربدة ، إلى تخييل للرضا والمَوْجِدَة . إلى تصوير لمعونة المنكوب ، وتلافى الخطوب . إلى غير ذلك من كل معنى يجلّ فى نفسه ويعظم التأثير بتمثيله . ذلك هو الرقص الذى تنفرد فيه الراقصة بتمثيل هذه المعانى الشريفة أو يشاركها من يشاركها بلا تعانق ، ولا تلاصق . ولكن للتعاون على إبراز هذه الأغراض وتجلية تلك المقاصد

والعجب العاجب أن قد بدأ المصريون ، مسيحيوهم والمسلمون . يأذنون لرقص المخاصرة أن يدخل بيوتهم وتعتاده بناتهم ، وقد رضيه الرجل لزوجه والشاب لخطيبته بل إن بعضهم يشترطه فى جملة ما يشترط من عفاف وتدبير ! !

يا لله ! ! أحين يبدأ الأوربيون يستنكرون هذا النوع من الشناعة نرحّب نحن به ؟ إن لنا من شرقيتنا وغيرتنا ما يجعلنا ننكره وإن استحسنوه ، ونتفيه مهما تمسكوا به وأحبوه

ألاَ إنى لكم أيها المصريون لنذيرٌ مبين . إنكم إذا لم تغضبوا لهذه الحال فاقبلوا نتائجها من فجور لا يقام بسبيله ، ومن تفكك فى روابط الأسرة وتداعٍ لهيكلها المقدس الذى يجب أن نحرص عليه كل الحرص

٤١

الطفولة (١)

ما أسعد الأسر بأطفالها . بل ما أسعدها بتلك الأرواح الزكية التى يُشم منها عَبَق السذاجة والطهر . بل ما أجذلها بتلك المرايا الصافية التى ترى فيها الضمائر البريئة ، والسرائر النقية . بل ما أهنأها بهذه الأملاك التى تنزّلت من سمائها فمشت بينها ، تعيش فينا بأجسامها الناعمة وتسمو عنّا بأرواحها الملْهَمة وخيالاتها الباسمة

أيتها الأم . ألستِ هنيئة بذلك الرضيع الذى تضمينه إلى صدرك وتمنحينه ثديك فيقدم لك الشكر من عينيه البراقتين المملوءتين سحراً ، ويعرب لك فى صمته أو مناغاته وفى تعلقه بك وتمسكه بأهدابك عن سرور لا تستطيع العبارة أن تؤديه . .

أيتها الأم ! ألست هنيئة بطفلك الذى لم يعرف بعدُ العهدَ ولا الوفاء ، ولا الألفة ولا الجفاء . فيودّعك حين تفارقينه لحظة بالبكاء الحار ، ويستقبلك حين عودتك بأسمى أنواع الحفاوة والابتهاج ، ومهما تكرر فراقك له وعودتك إليه فلن يعتاد أبداً السلوى عنك ، بل لك فى كل فراق دموع غِزَار ، وفى كل عودة فرح واستبشار . . .

وأنت أيها الأب . أليس لك فى طفلك مسلاة عن كل هم ؟ أو ليس من ابتساماته لك ما يبدد سحب الشقاء يعترضك فى حياتك

---

(١) نشرت فى مجلة المرأة الجديدة

أليس يعجبك منه أنه أول ما نطق سبّح باسمك فاستقبلك به قادما وودّعك به مفارقا ثم ظل يرطّب به فمه فى فترات غيابك كأنه يبتهل إلى القدرة أن تصونك من مخاطرك وتعينك على متاعبك

فما أسعد الأسر بالأطفال وما أسعد الأطفال بآبائهم وأمهاتهم

٤٢

الحظوظ

يجب أن نعتقد أن فى هذه الدنيا جدوداً قائمة وأخرى عاثرة ، وأننا فى حياتنا نتلقى من مَوْهِبة القدر أو مَرْزِئة القضاء ما يكون مادة لسعادتنا أو مثاراً لشقوتنا . وأن من الخطأ الواضح أن نجرى وراء هؤلاء الماديين الذين يقولون (حظك فى يدك) فإننا حين ندين بهذا الرأى جديرون أن نتبرم بهذه الحياة إذا هى عبَست لنا وما أكثر ما تفعل ، خليقون أن نشقى على غير طائل فى سبيل تكميل أنفسنا إذا لم تهيأ لنا أسباب ذلك .

فمن ظن ممن يلاقى الخطوب بأن حظه فى يده ، وأن عليه تقويم معوجه وإصلاح فاسده فقد جرّ على نفسه أن يبقى نافخاً فى غير ضَرَم ثم صائراً بعد الفشل إلى القنوط ، وبعد اشتعال الهمة إلى الخمود ، جاحداً أن مع العسر يسراً ، وأن لهذا العالم مدبراً هو الذى أعطى ومنع ، وسلب ومنح . وسر وساء ، ووفّق من شاء ، لما يشاء . وتلك لعمرى مقدمات الانتحار ، وسبيل الخلود فى النار . .

أيها اللَّغِب المكدود ، اللَّجوج الكَنودُ [1] أراك وأنت المخلوق الضعيف كأنما تحاول أن توقف دورة الفلك ، وأن تعترض القضاء أيةً سلك ، فمهلا مهلا ، لقد أتيت جهلا . فماذا يجدى هذا النِّطاح للصخر ، أو المزاحمة

---

(١) اللوام لربه تعالى

للبحر . أو ذاك العِهْن المنفوش فى طريق السيل المُنْهَمِر ، أو تلك الحَفْنة من التراب تلقى على الحريق المستعر

وأنت أيها المُرْهَف العزم ، الشديد الحزم . ما فطنتك إلا نار الحُباحب فى الليل البهيم ، ولا نشاطك إلا مسابقة السلحفاة للظَّلِيم [١] . ولا حيلتك إلا حيلة النعامة [٢] ، ولا برهنتك إلا الاستدلال بظل الغمامة [٣] . . أتنكر الحظ وأنت ترى الناس وفيهم من ورث الذكاء أو الغَباء . والمرض أو السلامة . والحسن أو الجَهَامة . أو تنكره وأنت تدرُس مواطن الأمم ؟ وفيها من نشأت فى الجدب أو الخِصب . والوعورة أو السهولة . والاعتدال أو الانحراف . أو تنكره وأنت تقرأ التاريخ ؟ فتمر بك العصور التى خُضبتْ بالدم ، وقضيت فى الكرب والهم . وتسنح أمامك لحظات السعادة وما يكسوها من بهاء ويتردد فيها من عزف وغناء

هُوَ الجَدُّ حتى تفضُل العينُ أختَها وحتى يكون اليوم لليوم سيدا

لا بل حتى يكون الحادث الواحد سعادة وشقاوة فالتجارة لا تتم فيها صفقة إلا وهى ربح لأحد المتبايعين وخسارة للآخر ، وفى الطب قد يتحد المرض والدواء ، فمريض يصح وآخر يذهب به الداء

سبحانَ من قَسمَ الحظو ظَ فلا عتاب ولا مَلَامَهْ
أعمى وأعشى ثم ذو بصر وزرقاءُ اليمامهْ

---

(١) ولد الظبى (٢) تختفى من صائدها بوضع رأسها بين جناحيها . وتظن حين لا تراه أنه لا يراها (٣) من أحاديث كليلة ودمنة أن مغفلا خبأ كنزاً وتعرف موضعه بغمامة كانت تظله

٤٣

البورصة

ويسميها جماعة المعربين المَصْفَق . وما كان أحراهم إذا نظروا إلى كنه المعنى أن يشتقوها من الصعْق لا من الصفْق .

وسواء أكان لفظ « البورصة » أعجميا أم عربيا فأن صدره وهو (بور) نذير البوار ورديف التلف . وما أشأمها طِيَرة لو لم يكن داخلها قد عمى عن كل شيء إلا قوله لسمساره بكم اشتريت ، وبكم بعت . .

دخلتها حين أردت أن أتمثل الأمل الكاذب والطمع المبيد فأذا بهما نهر من السراب . ينساب في قفر يَبَاب . وإذا بالمضاربين أو المقامرين أو المستميتين أو المتبرمين بالغنى ، المستعذبين وِرْد الفقر قد وقفوا حول حظيرة يروح ويغدو فيها قوم يسمونهم السماسرة . فقبل أن يدقّ جرس العمل ويؤذّن مؤذن الخراب ، ترى هؤلاء السماسرة كقبيل الشيطان يتفاءلون ويتشاءمون ، ويَعِدون ويتوعدون ، ويُطمعون ويُيأسون ، ويبشّرون وينفّرون ، ويرجون خيرا ، ويتوقّعون ضيرا ويتقوّلون على الحِدْثان ما لم يكن ، ويعظمون كل صغير كان . حتى تهتز قلوب الواقفين وتسرى الأنباء إلى الغائبين فيقع الهول والهلَع أو يقوى الأمل والطمع . فيكون من جراء ذلك أن يؤمروا بالبيع والشراء ، ولهم على ذلك سمسرة يأخذونها على الكره أو الرضا ، والغُرْم أو الغنْم

فأذا حمِي الوطيس رأيت حربا يفعل فيها الكلام ، مايعجز عنه الحسام .

وتغنى فيها الإشارة، عن السَّمْهَرية الخَطَّارة[١]. فكلمة نعم، قد تدنى أو تبعد المغنَم. وكلمة لا، قد تنشر من البلى، أو تقدّ فى البطن السلاَّ[٢].

هى حرب لا ككل الحروب يتصافح فيها السالب والمسلوب، ويتضاحك الغالب والمغلوب. وما ذاك إلا لأن المتقاتلين ممثلون أُجروا على هذا الموقف وقد أُلقى إليهم أصحاب الأضغان وذوو الأوتار بأسلحتهم وأمروهم أن يحاربوا بأسمائهم. فليس يضيرهم فى آخر المعركة أن يكون النصر فى جانب دون جانب. لأنهم سيتقاضون أجر هذه الذبيحة، وسمسرة تلك الصفقة خاسرة أو ربيحة.

لكل عمل فى الحياة طريقة إذا استقمتَ عليها أحمدْتَ عاقبتك، ووصلت إلى غايتك. فلتحصيل العلم الجد، وللحرب الشجاعة، وللمعيشة الاقتصاد، وللسلامة توقّى الداء. فأما العمل الذى لازِمام له يؤخذ به، ولا سبيل يسار فيها إلى غايته فذلك هو المضاربة أو المقامرة فى « البورصة ». فإن قلت: الإقدام. فربّ إقدام كان فيه الحتف، وأمامٍ كان خيرا منه خلف. وإن قلت: الأناة والروية. فرب خَطْرة وَهْم، بدلت فرحا بغم، وغُنْما بغُرْم. وإن قلت: مراقبة الحادثات وانتظار الملمات. فأنك لا تدرى حين تبدأ العاصفة متى تقف، وحين تتلبّد الغيوم أيان تنكشف؟.

فالبورصة اضطراب شامل، واختلاط حابل بنابل. فمن عالج أمورها فهو يخطىء إن تذرّع لها بفكر، أو صدر فيها عن حيلة ومكر. فربحها

---

(١) الرماح (٢) السلا الكيس يكون فيه الجنين. وانقد فى البطن السلا مثل يضرب للشر العظيم

وخسارتها لا يكونان عن اجتهاد أو كسل ، ولا يستحقان أن يسميا فوزا أو خيبة ، لأن هذه الأسماء ربما أشعرت بأن للرابح أو الخاسر أثرا ظاهرا أو خفيا فى ربحه أو خسارته ، وليس شىء من ذلك حاصلا ، فأن كنت تريد أن تصدُق فى التسمية فليس أمامك إلا كلمات الاتفاق أو المصادفة . والخبط أو الخلط .

فيا بؤسَى لك « أيها المضارب » متى سرَّتك « البورصة » أبثروتك التى وقعتْ فيها بين قوتى الجزر والمد ، وتعرضتْ لحادثتى الأخذ والرد . أم بعقلك وقد دلّهتْه ، وجسمك الذى تَخوّنَتْه . أم بمضجعك وقد أقضّته ، ونومك وقد شرّدته . أم بمصيرك إلى الفقر وقد هيَّأتْه . . .

يا بؤسى لك قد تخوّلك « البورصة » فى اليقظة ما يُخَوّل الحالم فترى أنك قد استوليت على أكوام البِدَر ، وقبضتَ بيد على الشمس وبالأخرى على القمر ، ولكن سرعان ما تسترد الموهوب ، وتستولى على القديم المكسوب . فتستوى عند ذلك اليقظة والمنام ، وتصبح وقد لصق أنفك بالرَّغام .

يَحْسَبَ الحظَّ كلَّه فى يديه وهو منه على مَدَى الجوزاء

فأن أردتَ أن تعرف شؤم هذه البُومة نذيرة الخراب فاسأل الغابرين والباقين من انتفع بخيرها ثم سلم من شرها ؟ أو اذكر اسمها فى مجلس فأنه لا تخطئك الدموع المتحدرات ، ولا الزفرات المتصاعدات ، ولا الآهات المحرقات

٤٤

الانتحار

« علمت أدارة الأمن العام في اليومين الماضيين أن عبد القادر عمار »
« المدرس بالمدرسة الكاملية بالأسكندرية ألقى بنفسه من نافذة مسكنه »
« محاولا الانتحار لخلاف منزلى وأن فتاة رومية فى حى كرموز شربت »
« جرعة من صبغة اليود لعدول خاطبها عن التزوج منها وأن غلاماً فى حى »
« العطارين أشعل النار فى ثيابه لخلاف بينه وبين والده وأن وطنياً فى طوخ »
« شرب جرعة من حامض الفنيك لنزاع بينه وبين والده وأن بحاراً من أهالى »
« القاهرة انتحر لنزاع بينه وبين آخرين وأن أيطالياً فى حى عابدين شرب »
« مادة سامة منتحراً لمرض أزمن معه »

« الأهرام فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٦ »

تقرأ أو تسمع — وحسبك من شرٍّ سماعُه — أن فلاناً انتحر لمتْرَبة[١] عضّته ، أو عشيقة هجرته ، أو صاحبة[٢] خانته . أو لمرض لا يرجو شفاءه أو امتحان لم يحسن أداءه . . لا بل قد يشارف الفَوْت ، ويصافح الموت ، لكلمة لم يرضها ، أو حاجة لم يقضها . أو عثرة فى طريقه ، أو غُصة بريقه . لا بل لِوَهْمٍ قام بخياله يعترض طريق آماله

فما أهونها نفوساً جهلت سر الوجود ، فلم تحسن الصَدَر ولا الورود وفاتها أن الدنيا معترك نضال ، وحَوْمة نزال ، لا وقفة لرحاها ، وفى علم ربك منتهاها . فالعائش فى الدنيا — رضى أو كره — جندى يجب عليه أن يغامر[٣] وأن يصاول ويساور[٤] . لا يطمع فى فرار ، ولا يؤمل أن يستقر له قرار ،

(١) فقر (٢) زوجة (٣) يلقى بنفسه فى الشدائد (٤) يصاول ويساور بمعنى يغالب

فالموت غاية الغالب والمغلوب ، ومصير السالب والمسلوب

فياعجباً لمن يكون الموت حواليه ، والصَّرْعَى ملء عينيه ، وتحت قدميه ويقف وما فى الموت شك لواقف ، وفى رمية سهم . أو خَطْرة وَهْم . قد ينال الراحة الكبرى ويحرز النصر المبين فيلقى ربه راضياً عن جهاده ، مشكوراً على سِداده [١]

يا عجباً له يرى كل ذلك يقيناً ، ويعتنقه ديناً . ثم يبيع شرف الدنيا ونعيم الآخرة ويتعجل الموت الذى ما منه بد ، ولا له مردّ . فينثنى على سيفه ، ويسعى لحتفه ، ولو بظِلْفه . . .

فياعدوّ نفسه لو عرفت مصيرك فى آخرتك ، ما أقدمت على جهلتك . إن كنت تفرّ من الشقاء فإنه ملاقيك ، أو تتخلص من العار فهو ملازمك ومدانيك . وإن كنت فزِعت من قضاء الناس فأنك من قضاء الله أفزع ، وإن جزعت من عذاب الدنيا فأنت والله من عذاب الآخرة أجزع . (وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .. فيا بؤسى لشقى يسجّل على نفسه الشقاء ، ومتبرم بألم سَيَأْبِد [٢] فى اللأواء [٣] ، وسجين كان إلى حرية فاستحال الفداء . . وياجهل من ظن أنه يملك أمر نفسه فهو يعيش أو يموت ، ويبقى أو يفوت ، ويجوع أو يقوت . ألاَ لِيَعْلَمِ الناس أن ليس لهم من أمرهم جليل ولا بسيط ، وأن الله من ورائهم محيط

---

(١) السداد بالكسر حسن القيام بالأمر وتلافى نقصه وهو المراد هنا . أما السداد بالفتح فهو الصواب (٢) يأبد يبقى ألى الأبد (٣) اللأواء الشدة

٤٥

فقيد العلم والمعارف

مات المرحوم الأستاذ محمد افندى عيد[1] مفتش وزارة المعارف للتعليم الأولى بالزقازيق . مات رحمه الله فتساقطت لنفسه نفوس وتقطعت أسباب . جاور ربه بطعنات من معتد أثيم ، فويل للظالم من عذاب يوم عظيم ! !

فجع فيه رحمه الله آلاف من الأصدقاء ، كان عليهم أعز من أنفسهم ، وإليهم أحب من أبنائهم . للطيف عشرته وحلو محاضرته وشديد وفائه . وقد تخرج معنا فى دار العلوم سنة ١٩١٢ فخدم التعليم فى مجلس مديرية القليوبية إيثاراً منه للحرية ورغبة عن وظائف الحكومة . ولما رأى أن مجال الحرية فى خدمة المحاماة أوسع واستطاعة النفع أيسر اشتغل بها فى آخر أيامه نحو أربع سنوات ، وكان منه فى هذه المدة خدم جليلة للتعليم الأولى من التفكير فى عمل نقابة له تجمع شتات المعلمين فى أنحاء القطر وتحقق آمالهم ، فجد لذلك جده المعروف وخدم الموضوع أخلص خدمة فى صحيفته الأدبية التى ذاعت لها شهرة فائقة على حداثة عهدها وهى « المعلقات » . وفى آخر أيامه بهذه الدنيا ألحّ عليه صديقه حضرة صاحب السعادة محمد على المغربى باشا « السكرتير » العام لوزارة المعارف إذ ذاك فى قبول وظيفة التفتيش فكان عهده بها آخر عهد الدنيا وعهدنا به

* * *

(١) وقع هذا الحادث يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤

أيها الفقيد الكريم : فى سبيل الله شباب كانت تزينك أبراده ، وتميس بك أعواده . قد وَقَفْتَه على المعروف تصل مقطوعه ، وتمنح ممنوعه ، وتعمُر ربوعه . وفى سبيل الله مروءتك التى تعددتْ حتى عمّت ، وجلّت حتى كأنما خصت . فكلٌّ خدين ، بها مدين . وفى سبيل الله همتك التى كانت علتك المُضْنِية . ويا عجبًا كيف متّ بغيرها . وشجاعتك التى كانت خطتك المُرْدِيَة . ولعلك اليوم صَلِيتَ بنارها .

فى سبيل الله خلق فات العلماءَ أن يصفوه . لأنهم لم يعرفوه ، بل لم يتخيلوه وكيف يصدّق الناس فى زمننا أن تحْقَر الدنيا فى مقتبل العمر . ويُرغب عن المال فى غير يسر . ويُؤثِرون لا إيثار ، من ليس بقريب ولا جار .

فى سبيل الله روحك التى ما صادفتْ نفساً إلا هزتها ، ولا عثرت بكربة إلا فرّجتها . وهذا سر فى تلك الروح لم يفتح الله علىّ بفهمه ! ! أكانت النفوس من نفسك مقبوسة ، فهى إليها دانية وبها مأنوسة ؟ أم هو سلطان القوة يأسِر ثم يرحم أسيره ، ويجبر كسيره . لقد كنت فى الدنيا وكانت روحك معتَقَلَة فى جسمك . ثم هى لا تغبِّنا على البعد خطوراً ، فكنا نذكرك عشيّة وبكوراً . فكيف اليوم وقد أفلتتْ من العقال ؟ فلعلها غير بارحة لنا من بال .

أيها الفقيد العزيز . لا أجد من أعزيه عنك ، وليس ذلك من انقطاع نسب أو قلة قرابة . ولكن لأنى أجد الناس فيك رجلا واحداً فكل بك موتور ، وبالحزن عليك مغمور

لا أجد من أعزيه ولا من يعزينى عنك ، لأن الحزن فى قلوب عارفيك واحد لايزيد ولا ينقص . فكأنه ظلام الليل . هو فى الخِباء ، مثله فى العَراء

فرحمك الله ورحم نفوساً سيأتى عليها الأسى من أجلك . ورَعى عهدَك الذى مضى كعهد الورد ، ذَوَى فى أنضر نُضرة ، وشُيِّع بأعظم حسرة . وسقى جدثَك الذى ضمَّن المجد ، وانطوى على أشم طَوْد .

ثم عليك سلام الله من الحزين الكسير القلب

محمود مصطفى

٤٦

وفاء شاعرنا حافظ

كل الناس يعرف فضل المرحوم حشمت باشا على حافظ ويقدرون نعمته التى تقلب فى أعطافها بعد البؤس الذى لم يُحسِنْ الصبر عليه ، بل كان دائم التبرم به والشكوى منه . فهذا شعره القديم ينطق عليه بالحق أنه كان بائسا فاقد الصبر واهىَ الجلد غير متجمّل فى فقره . فلما أراد الله له يسرا بعد عسر ، وفرجا بعد ضيق . أجرى على يد المرحوم حشمت باشا ذلك الخير الذى رفع حافظا اليوم إلى مقام الأمراء وأشباه الأمراء .

هذه واحدة من مكارم حشمت تريك كيف كان هذا المرحوم المبرور يعيد فيناسيرة الأجواد المشهورين من العرب . قيل إن الأستاذ الإمام رجا صديقه حشمت أن يُعِينَ حافظا على طبع الجزء الأول من كتاب البؤساء فلما مَثَل بين يديه بعد هذه التوصية أمضى له صكًّا بألف جنيه . فحين نظر فيه ظنها قروشا فظهر عليه حال المستقل للعطاء فقال له حشمت أعِدْ نظرك فى الصك فإنا قد أرضيناك . فلما تحقق أن الهبة ألف جنيه ولم يكن رأى ألفا قط ولا حدّثته نفسه بحيازتها يوما من الأيام كاد لبه يطير من الفرح وبهره الموقف فلم يدر ما يقول . ثم انصرف وهو يكرر الدعاء للباشا .

هذه واحدة ! ولو ذهبنا نعدد حسنات حشمت على حافظ لذكرنا ما كان من شأن كتاب الموجز وكتيّب فى التربية وغيرهما من الكتب التى

يعرف قلم « الحسابات » بالمعارف كم قبض حافظ من ثمنها

وإن واحدة من هذه لكافية أن يحبس حافظ قلمه ويهب روحه لمولاه فماذا كان منه من الوفاء الذى يتمدح به ويكثر الإدلال من أجله . لقد كان منه هذه القصيدة التى قالها بعد أربعين يوماً من الوفاه ، فلم يوفق إلى تخليد مولاه

قصيدة فى تأبين رجل من كبار المصريين تقلّب فى مناصب الدولة وتولى الوزارة مرات وأبلى فى خدمة التعليم وزاد من أنواعه التعليم التجارىّ الذى لم تكن تعرفه مصر . وحارب سياسة دنلوب الاستعمارية وعمل بهمة فى إحياء الآداب العربية حتى لقد تبرّع بالنفقة على طبع ديوان ابن الرومى . رجل هذا بعض شأنه لا يكون نصيبه من عبد إحسانه وقِنْ مروءته إلا أربعة وثلاثين بيتاً اشتغل الشاعر فى أكثرها بنفسه فافتخر وذكر الأحقاد والحساد! !فويل لهذا الذوق الذى لا ينسيه جلال الموت شؤون الدنيا من بغض وحب ، وبعد وقرب . وعناد ومشادة ، على المادة .

إن وقت الرثاء هو الوقت الذى تصفو فيه النفوس وتتجرد من حيوانيتها فتنطق بحكمة القدر وتتمثل منسىّ العبر ، وترجو الخلد وتخشى سقر . هذا هو اللائق بمقام الرثاء لا ما كان فيه شاعرنا حافظ اليوم من حرص على الحياة وتشبث بها وفرح بالظفر الموهوم ، بعد العداء المزعوم

إن حافظا يخيِّل له وسواسه أن له أعداء يكيدون له ويدسون عليه ويتربصون به وأن الذى حرك فى نفوسهم هذا الشر هو فضله الذى بهر أبصارهم ، وحط أقدارهم ، بل محا آثارهم . حتى لقد بلغ به أن يشكو إلى الناس

حاله فيخيّل للسامع من كثرة ما يبالغ له فى تصوير هـذا الزعم أن هؤلاء الأعداء قد أسرجوا له وألجموا وتلبّبوا واستلأموا وأنه لو تسمّع لسمع وقع الحوافر وصلصلة السيوف . وفى كل مجلس يقول ش . . يريد أن يقطع عيشى و م . . قد انبرى لى وسلّط علىّ . وأ . . يأجر الكتاب ليسبونى وينالوا منى . هذا زعمه . والحق أن الرجل واهم ، أو هو مريض يجب أن يُعرض على الأطباء حتى يريحوه من طغيان هذه الحال به . فلا حقد ولا عـداوة ولا إرادة سوء وإنما هو نقد صحيح خالص لوجه الله ولخير اللغة .

وقد اتفق أن شعر حافظ هو الشعر الذى يجد فيه الناقد عيوباً ظاهرة ومآخذ بينة . فجزى الله حافظا خير الجزاء ، بما قد أراحنا من عناء . إذ كان شعره بيئة صالحة لنمو الأغلاط النحوية والبلاغية ومضربا للمثل فى فساد الذوق وضعف الملاحظة

* * *

ونحن نبدأ بالنقد الموضعى فى هـذه القصيدة فنقول :

يقول حافظ فى المطلع .

حَبَس اللسانَ وأطلق الدمعا ناعٍ أصَمّ بنعيك السمعا

وفضلا عن كون هذا البيت مسروق المعنى واللفظ من قول أبى تمام

أصمَّ بك الناعى وإن كان أسمعا وأصبح مَغْنَى الجود بعدك بَلْقَعَا

نرى أن حافظا قد فاتته مراعاة براعة الاستهلال مع أن الفرصة ممكنة لولا أن ضعف ذوقه يجعله لا يبصر ما أمامه من موجبات الكمال . وماذا كان عليه إذا هو تمم السرقة من أبى تمام فقدم النعى والصمم به وجعل بيته هكذا

ناع أصمّ بنعيك السمعا حبس اللسان وأطلق الدمعا

ويقول بعده

كَمْ مِنّةٍ قد طوّقتْ عنقى ما إن أُرِيغُ لِطَوْقِها نَزْعا

وهذا بيت ليس فيه من جليل المعنى مايجعله أهلا لأن يلى المطلع فى القصيدة . ثم هو إلى جانب ذلك لا يصلح أن يكون تأبينا لعظيم كحشمت باشا . هل ترى فى البيت معنى أكثر من قوله إن لك فى عنقى نعما كثيرة لا أستبيح التحرر من رقها ، ومَنْ مِنَ الناس مهما ضعفت همته وسقطت مُروءته لا يستطيع أن يصطنع إنسانا واحدا فيطوقه بفضله ويشمله بخيره . لو أن حافظا يريد إعلاء لقدر مرثيه لجعل هـذه المنن له على مصر أو على القضاء أو على التعليم . أما أنت ياحافظ فأن مثلى فى فقرى وصغر شأنى يستطيع أن يكون له منن عليك لاتريغ لطوقها نزعا

ثم يقول عن نفسه بعد موت الأستاذ الإمام وحشمت باشا

فَلْيشْمَتِ الحُسَّادُ فى رجل أمستْ مناه وأصبحتْ صَرْعَى

وهنا نقف وقفة طويلة عند المصراع الثانى من البيت (أمست مناه وأصبحت صرعى) . أيريد حافظ أن يقول إن مناه صارت صرعى ؟ إذن كان يكفى فعل واحد وهى أمست أو أصبحت فأن المراد يؤدى به ولا داعى للتكرار لأن الفعلين هنا بمعنى صار . اللهم إلا أن يكون جرى على طريقة القائل (وأَلْفَى قولَها كَذِبًا وَمِينَا)

فيكون قد وقع فى العيب البلاغى وهو التطويل . وإن كان مراده أن آماله وأمانيّه ماتزال تصرع فى كل صباح ومساء فليعلم أن تعبيره لا يؤدى

هذا المعنى إنما يؤديه قوله تمسى وتصبح لأن الفعل المضارع فى هـذا المقام يدل على التجدّد . والعجب أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت استعمل هذين الفعلين بخصوصها وأراد أن يدل بهما على هذا المعنى فقال

وإنّ امرأ يُمسى ويُصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

ثم يقول حافظ

إنْ جاء ذو جاهٍ بمحمدة وَتْرا شآه بمثلها شَفْعا

لا شك أن حافظا لا يعرف الفرق بين إن وإذا الشرطيتين لذلك تراه استعمل إن فى موضع إذا فى هـذا البيت فأساء إلى مرثيّه وهو يظن الإحسان إليه

إن تستعمل فى الشك ، وإذا تكون فى اليقين والله تعالى يقول (إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّون اللهَ فَاتَّبِعونِى) ويقول (إِذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ . . . .) فحافظ باستعماله كلمة إن يشك فيما يمدح به صاحبه وما ذلك بمناسب مايريد من تسجيل فضله

ويقول حافظ فى شأن أعدائه

أصبحتُ فردا لا يناصرنى غيرُ البيان وأصبحوا جمعا

لقد كنا نظن أن حافظا حين يشكو الأعداء يريد الأدباء الذين يزاحمونه فى الفضل ويهاجمونه بالنقد ويظهرون للناس جمود قريحته وحيرة قلمه . هذا هو ظننا وإذ ذاك ليس لحافظ ولا لغير حافظ إلا القلم الذى يسله سيفا يقطع به الألسنة ويرهب القلوب ولم نكن نظن أن مثل الأديب يحتاج كما يحتاج شيخ القبيلة أو زعيم القرية عندنا إلى العصبية أولا ، والجاه

عند الحكام ثانيا ليوقع الرعب فى قلوب الأهالى فيظلمهم كما يريد ويأخذ حقهم فى الماء من غير نكير عليه ولا انتصاف منه .

ماذا يريد حافظ غير البيان نصيرا وهو فى مقام إن استعان فيه بغير البيان لم يكن شريفا . هل يُرضى حافظا وهو يعدّ من أعدائه أن يستعدى علىّ وزير المعارف ليوقع بى من أنواع العقاب ما يشغلنى عن حافظ أو ما يضطرنى إلى مصانعته ومداجاته ؟ أئذا كان حشمت رحمه الله وزيرا للمعارف اليوم سمحت لحافظ نفسه أن يشى بى إليه ويدّعى علىّ عنده ؟ لقد أخطأ حافظ إن ظن أن كرامة الوزراء تجيز لهم أن يحاربوا النقد كما يريد . فإنهم يعلمون قبل سواهم أن حياة الأدب فى حرية النقد وأن أطباء الشعر والكتابة هم النقاد الذين يقطعون العضو الفاسد ويحاولون تقويم المعوجّ ويقسون على المريض قسوة هى الرحمة له والإبقاء على روحه

ويظهر أن حافظا لا ينظر إلى نفسه نظرة الأديب الذى يرى أن الحجة الدامغة هى سلاحه وأن جلال البلاغة هو رعبه الذى يقع فى قلوب الأعادى وأن المعجبين به من القراء هم جنده الذى ينصره ويشد أزره . يظهر أنّ حافظا لا يفهم شيئا من هذا بل يعد الشعراء مثل (فتوّات) مصر منذ عشرين أو ثلاثين سنة فيكون شوقى هو محمود الحكيم وحافظ هو كسله هذا فى الدرب الأحمر وذاك فى الدراسة وثالث فى الحسنية وهكذا . هؤلاء (الفتوّات) حقاً هم الذين يندبون حظهم حين انفضاض الأنصار وتشتت الأعوان وضياع الجاه وفقدان المدد فما لحافظ يقول

لا جاهَ تحميني ولا مددٌ ... عنى يردّ الكيد والقذعا

لقد عهدنا الشاعر يُعين ولا يُعان ويُعْدِى ولا يستعْدِى . هذا حسان كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعين به على الكفار وحسان لا يملك إلا لسانا يقول فيه

(وَيَبْلُغُ مالا يَبْلُغُ السيفُ مِذْوَدِى)

فما رأينا طلب المدد ولا اشتكى نقص المؤونة

ونعود فنقول إن حافظا أراد فى هذه القصيدة أن يوهم الناس أنه ظل إلى آخر أيام حشمت باشا حافظا لعهده مقيما على ولائه مترددا عليه فى وحدته عائدا له فى شيخوخته فحين فقده شعر بفقد الجاه وضياع الآمال وتقطع الأوصال فقال

قد ضقتُ ذَرْعا بالحياة ومن يفقد أحبّته يضق ذرعا

والحق أن حافظا كان فى شغل عن مولاه فى أيامه الأخيرة بالزلفى إلى غيره من الرؤساء أمثال نشأت باشا الذى طوّقه نعمة الرضا من حضرة صاحب الجلالة الملك فصار شاعر جلالته كما ذكر المقطم يوما ما ، وأمثال على ماهر باشا الذى اشترى بؤساءه وكتاب التاريخ المسمى (القصص التاريخية فى أشهر ملوك الأمة المصرية لتلاميذ المدارس الابتدائية).. فهو يريد أن ينسينا تلك الجفوة التى جفاها ولىّ نعمته وأول من خلع عليه ثياب النعيم

والحمد لله إذ كان حافظ اليوم منصفاً من نفسه إذ اعترف فى آخر القصيدة بالتقصير فى رثاء صاحبه. ولكنه عاد فوعد بتوفيته حقه فى مقام آخر إذا مد الله فى عمره فأشبه بذلك الحذّائين والخياطين حين يخطئون أو

يقصّرون فيقولون (المرة الآتية نعوّضها لك) هذا هو ما فعله حافظ فى قوله

سَأُفِيكَ حقّك فى الرثاء كما ... تَرْضَى إذا لم تُقْدَر الرُّجْعَى

لقد فاتتك الفرصة ياحافظ فهذا يوم الأربعين اعتاد الناس أن يظهروا فيه كل ما يعتقدون للراحل من فضل وأن يسجلوا له كل ما قدروا عليه من محامد . فأذا فات أحدهم هذا اليومُ فما نظنه فاعلا شيئاً

٤٧

إلى الصديق البغيض [١]

داعبْنا بعضَ الأصدقاء وهو أعز علينا من أنفسنا فكتبنا إليه هذا الخطاب نعارض فيه أسلوباً قديماً كان يستعمله الجاحظ

* * *

لا تحية ولا سلاماً . وبعد فقد خلعتك حذاء بالياً ، وهرَقْتُ صداقتك ماء آسناً ، وطرحتك فضلة آكل ، بل قِئْتك تخمة متخوم ، ومسحتك من الذاكرة قذراً عالقاً ، ونفيتك مشاغباً مائقاً ، واستأصلتك شوكا شائكا ، ونسيتك ذكرى مؤلمة ، بعد أن عرفتك حجة للوحشية قائمة

فاجعل كتابي إليك زجرةً لكلب نابح ، أو صفعة لمشاغب صائح أو طردة لطُفَيْلِيّ ، أو نفياً لدخيل دَعِيّ ، أو طلاقاً لامرأة سليطة ، أو خلاصاً من هُوّة سحيقة

فلا أرانى الله وجهك يا ساعة النحس ، ويا طلاقاً ليلة العرس ، ويا سعى الحلائل على البعول ، ويا خضاباً فضحه النصول ، ويا حقاً ضاع ، لسوء الدفاع ويا تجاور الأخوين غنىّ راتع ، وفقير جائع ، أو عَقِيم يرجو ، ونَتُور يشكو. ويا جاهاً بلا مال . وهزيمة من غير قتال ، ويا صواباً يضاع ، وباطلا كثير الأشياع . ويا ضيعة الأديب ، ويا خيانة الحبيب . ويا موتاً فى الأعياد ، ويا شماتة الحساد . ويا غلظة المسئول مع خجل السائل ، ويا كثرة التعويل على

(١) نشر هذا الخطاب في صحيفة عكاظ الذائعة

غير طائل . ويا عسر الولادة على جهل القابلة ، ويا تأخر الطبيب مع شدة النازلة . ويا غبياً بين الأذكياء ، وجاهلاً بين العلماء . ويا نسياناً فى امتحان ، وخسارة فى رِهان . ويا عودة الأجير بلاأجر ، ويا صوماً بلا فطر . ويا غلطة الحريص على الصواب ، ويا ذُلّ الوقوف بالأبواب ، ويا فرار اللص بأنفس مسروق ، ويا قبح الجزاء من المعتوق . ويا مرضاً بلا طب ، ودعوة إلى غير الرب ، ويا كفراً ساعة الموت ، وعرجاً حين الفرار والفوْت . ويا حريقاً فى صيف ، وسرقة من ضيف . ويا قبح الفقر ، ويا عذاب القبر . ويا مَعِيناً نَضَب ، ومُخْصباً أجدب . ويا فرقة بلاوداع ، وشركة ربحها النزاع . ويا بكاء من غير دموع ، وطلاقاً بلا رجوع . ويا مبيتاً بالعراء ، فى ليالى الشتاء . ويا اجتماع العار ، مع الإقتار . ويا تهمة لاصقة ، وعقوبة ماحقة . ويا هم الدَّين ، وعقوق الوالدين . ويا بؤساً بلا رحيم ، ويا لعنة الشيطان الرجيم . ويا تِيهاً فى صحراء ، بلا زاد ولا ماء . ويا غلطة الطبيب ، ويا صمم المجيب . ويا خيبة الأمل ، بعد الجهد والعمل . ويا كسلاً عن ميسر رزق ، ووقوعاً فى أقبح رِقّ . ويا فضيحة بعد استتار ، ويا خِذلاناً بعد انتصار

فابعَد فإنك أظلم فى عينى من الظُّلَم ، وأشأم فى المناجاة من الصمم ...

٤٨

رواية أربعة آلاف جنيه

نمت ليلة على خلوّ من جيبي ، وضيق من ذات يدى ، فرأيت فيمايرى النائم كأنى فى مدينة لاعهد لى بشبهها ، وبين قوم لم يكتحل جفنى بأمثالهم . فقلت لعلها عَبْقَر حاضرة الجن فى أوهام العرب .

وبينا أنا أجول فى شوارعها فيستوقفنى منظر مارد يغيب رأسُه فى السحاب ، وينتزع بين أصابعه الدوحة من الغاب ، أو قزم تعثر به رجلى ، فيتسلق الشجر ليستوضحنى ويستجلى ، إذ رأيت على جدار من الجدران إعلاناً كتب بأحرف من نار ، تتوهج فى صدره هذه الكلمات (أربعة آلاف جنيه) فجعلت أقرؤه وأنا أبعد ما أكون منه جواراً ، وهو أدنى مايكون منى أُواراً ، فإذا هذه الآلاف قد رُصدت بشروط لا يستجمعها إلا كل شيطان مريد ، وجبار عنيد .

أولها أنها لا تحل إلا لمن يملأ نهراً من دم ، وآخر من ناقع السم . .

وثانيها أن يعمد الراغب فيها إلى بضعة قلبه فينتزعها من موضعها ، ويزيدها فى لسانه ، ليتكلم إذا تكلم بلا قلب ، ولا يخشى غضب الرب . .

وثالثها أن ينفقها فى عزف وقصف . ولكن على قبور قتلاه ، وأن يقاسمها من عاونوه على المداورة والالف ، فى علانيته ونجواه .

ورابعها أن يتخذ من جماجم صرعاه جامه ، ومن أنين أهليهم ألحانه وأنغامه .

وخامسها أن يصر على باطله فلا يتوب ، ولا يستغفر لما جنى من ذنوب . ليلقى ربه على الكفر ، ويستقبل العذاب النكر .

فاستعذت بالله من حاجة تدفع صاحبها إلى مثل ما أرى . ولم أتوقع أن يكون من مخلوقات الله من يقبل هذه الشروط ، ويستسيغ هذه المنكرات ولكنى لم أكد أبرح مكانى حتى تقدم شيطان ، لا أدرى أمن الإنس أم من الجان . يتهافت من النذالة ، ويتضاءل من الجوع تضاؤل الذُّبالة . ثم رأيته مستوليا على المال مهنئا النفس بالشبع وقد بعُد به عهده ، والهجوع وقد عزب عنه وِرْده . وبالتقلب فى أعطاف الثراء ، بعد افتراش الغبراء . وحَتِّ الحصا عن جنبه المتعفر .

ثم أطار النوم عن عينى إقبال الصباح ، وجلبة الصياح . فحمدت الله أن كان ما هالنى رؤيا منام ، وأضغاث أحلام .

٤٩

رواية الأخوين

حدّث بعض أهل القصص أن رجلا من ذوى الأقدار فى مصر ارتقت به همته إلى عليا المناصب ، وكان رحمه الله قد أعقب ابنين أحسن تعهدهما وبذل فى تعليمهما من ماله وعنايته ما جعلهما يصبحان فى يوم من الأيام ذوَىْ شأن نتحدث به إليك

ورث الابنان من أبيهما همته ومضاء عزمه ولكن كبيرهما أدرك هذه العزيمة حين كانت شُعلة من الشباب ، وضِراما من الفُتوّة فصارت فيه نزقا وتشبثا ، بل مكابرة وتهوُّسا . أما الصغير فإنه وافاها على حينَ خالطتها حُنْكة السن وتمام التجربة فتمثلت فيه رجاحة رأى وصدق إيمان وفناء فى نصرة الحق واستبسالا فى خدمة الوطن

دخل الابنان فى زمرة الرجال ودعاهما الوطن للدفاع عنه فلبيّا النداء تحت لواء زعيم كبير مَلَك من الأمة قلوبها واقتادها بأزمّة من الإقناع بصادق الخدمة والبراءة من الغرض . وقد ظهر هذان الأخوان فى هذه الحركة وكان من الواجب أن يظهرا ولكن

لَشتّانَ ما بين اليزيدين فى الندى يزيدِ سُلَيمٍ والأغرّ ابن حاتم

فقد كان فى الأول حرص على العظمة وفَناء فى الشهرة يركب فى سبيلهما الشطط ولكنه يستر ذلك بما يدعيه كل محب لذاته من أنها آخر ما يفكر

فيه ، وأول مايُعرْض عن نوازعه ودواعيه . فأخذ الزعيمَ من لهجته مايسحر ، وغرّه من التفدية بنفسه ما يبهر . فقربه واعتزّ به ولكن لم يلبث هذا الدعىّ أن ذاق مرارة الحقيقة وهاله بُعد الشُّقة ووعورة الطريق ، وأنه يجد أصحابه من الصبر فى دروع مضاعَفَة ، ومن تمام التضحية فى حالِ مجازفة . . فأراد الفرار من الميدان ولم يرض أن يكون نصيبه من الغنيمة الإياب لأنه فى حرصه شديد الذكاء ، ومن حب الشهرة راكب هَوْجاء . فتظاهر بالانشقاق على زعيمه وإخوانه لاختلاف فى الرأى وتفرق فى الكلمة . وجعل يهذِى بأن الوطن الذى لبّى نداءه أولاً هو الذى من أجله ينشق على إخوانه آخراً ، وأنه لا يعنيه فى نفع الوطن رضاء أو غضب ، ولا مال أو نَشَب . فما زال يتدنى بهذه الكلمات من القبيل الخارج إذ ذاك على وَحدة الأمة المستعدى بالغاصب على تولى الحكم ، حتى ضمن وظيفة انزوى فى كِسرها وجعل يفنى أصابعه عضاً ، ويرُضّ أعضاءه رَضّا . أسفاً على ما كان منه من مجازفة لم يكن يقدُر مداها ، ولا يقرأ عقباها . ثم يعود فيحمد الله على الكَوْر بعد الحَوْر [1] ، والجبر بعد الكسر . ويراهد نفسه على الرضا بالحال وتقصير حبل الآمال فعلَ المقامر أشرف يوماً على الإفلاس فهو بعد شديدُ الاحتراس كثير الوَسواس .

ظل صاحبنا قابعاً فى وظيفته حتى دارت الأيام ودالت الدولة للكرام فإذا هذا الزعيم على رأس الحكومة وإذا إخوانه الذين ثبّت الله أقدامهم

(١) الكور التمام . والحور النقصان ومنه الحديث اللهم أنى أعوذ بك من الحور بعد الكور

قد صاروا وزراءه تنظر إليهم الأمة نظر الجيش للقائد ، لا الطير للصائد . وهدأت البلاد فى حلم لذيذ من الأمن والدعة والإنصاف ولكن لم يلبث أن أفسده على الناعمين به زلزال عنيف ارتجت له الأرجاء

ومن عجيب الأمر فى هذه الدولة العادلة أو تلك الرؤيا الصادقة أنها قد أبى لها كرمها وإباؤها أن تنحط إلى مساجلة هذا الخصم القديم بل تركته فى عمله لأن الهمة التى تناضل عظمى الدول لا تنازل صغار الأفراد . أما صغير الأخوين ففيه من عظماء الرجال مَشابه ومَخايل . كان يعمل ولا يتكلم ، ويُعذّب فما يشكو ولا يتألم . فلم يلبث الزعيم أن عرف له صدق وطنيته إلى جانب عبقريته ، وتوسّم فيه على حداثة سنه رجاحة الكهولة ، بل تجربة الشيخوخة . فاستعان به فى أمره وولاه إدارةَ وزارةٍ مختلّة معتلّة فما رأى الناس قبل يومه طبيباً يداوى من الموت

إذا نَزَلَ الحجّاجُ أرضا مريضة تتبّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العُضال الذى بها هُمامٌ إذا هزّ القناةَ رَواها

ثم جرى نحس الأيام ، ودالت [1] دولة الكرام ، واضطربت كِفتا الميزان ، فإذا كبير الأخوين يتربع فى كرسىّ أخيه ، وإذا الصغير يُدفع فى ظهره إلى السجن مأخوذا بجناية كبرى فيلاقى ألوان العذاب على سمع أخيه وبصره ، فما يهيج فيه للأخوة حنان ، ولا يتحرك له بالاحتجاج لسان . وما ظنك بالنهم أصابته مَخمَصة ثم خُلّى بينه وبين طعام شهىّ ولحم طرىّ .

(١) يقال دالت الدولة بمعنى زالت أو قامت والمراد هنا المعنى الأول

فهل تراه ناظراً إلى غير طعامه أو سامعاً غير صريف أضراسه .

ولقد عاب عليه الناس أن يعين إدارة سلطت على أخيه أو أن يسعى فيها إلى جاه يرتجيه ، أو يهنأ بكرسيّ يعتليه . لا بل عجبوا كيف ينام وقد أقضّ على أخيه المضجع ، أو يهدأ وقد نبا بابن أبيه الموضع . ولكنها حمى العظمة لو أصيب بها والد لعبر على جثث أبنائه إلى حيث الجاهُ المتخيَّل ، والعلو الذى يجعله الله إلى أسفل .

ثم أراد الله للمتهم براءة ، ولكوكب مصر أن يطلع سعداً فاضطربت كِفتا الميزان مرة ثانية فإذا صغير الأخوين قد تقلد الوزارة وكأنه سيف مُرْهَفٌ ، وإذا الكبير قد صار فى الناس سوقة يتَنصّف

فبيْنا نسوسُ الناسَ والأمرُ أمرُنا إذا نحن فيهم سوقةٌ نتنصف

هذه هى قصة الأخوين

٥٠

البراءة

أعرف رجلا لم يجمع الله فى نفس ما جمعه فيه من نقاء سريرة ، وسجاحة خلق ، وعاطفة حنان . .

زهِد فى المال لغناه بأدبه ، وسخِر من المظاهر لفهمه حقيقة الدنيا ، وتواضع حين ضمِنتْ له صفاته الرفعة . فهو من أجل هذه الشمائل محبب إلى كل نفس، مذكور بكل لسان ، مَغْشىّ الجناب ، مُوَطّأ الأكناف

قد جعل المُبْتغُون الخيرَ فى هَرَمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا

جرى القضاء بحوادثَ مشئومةٍ أفلتت فيها السهام من أيد خرقاء فأصابت كبد مصر ، وكان من جناتها بعض عبيد إحسانه ، وصنائع عطفه وحنانه . فوجد المحققون آثار فضله مبثوثة فى بيوتهم مفرقة فى أهليهم فظنوا الظنون . وقالوا لم يعطف عليهم ولم يرأف بهم إلا وهو عالم بأحوالهم راض عن أعمالهم . فكان هذا أساس التهمة

ولو أراد هؤلاء المحققون أن يهتدوا إلى الحقيقة فى أمر هذا المتهم بالخير لأرسلوا فى المدائن حاشرين يسألون من ذا الذى عرف فلاناً فلم يستأسر لشمائله ، ولم يُعْجَب بفضائله . ولم يقيده عُرْفه ، ويخلب لبه ظَرْفه ، حينذاك كانوا يعلمون أنه على أساس تهمتهم شريكُ كل جانٍ ومعين كل آثم ! !

رأيته فى قفص الاتهام . يُحاكَم على الوفاء لأن من المجرمين أصدقاءَ طفولته وزملاء تعلمه فهو لم يخضع لحكم الأيام فى فك الأواصر وتفريق الشمل وظل يذكر إخوان طفولته ويلقاهم من حين إلى آخر

رأيته يحاكم على المعروف ، لم أسداه إلى مستحقه ؟ وكيف لم يبخل بما من الله عليه من جاه ومروءة يخفف بهما آلام الناس أو يحقق آمالهم . وقالوا هذا صانع أحدثت له عملا ! ! وذلك تاجر أربحته فى صفقة ! وتلك حزينة واسيتها وباكية كفكفت من دموعها ! ! !

رأيته يحاكم على الكرم . ولو عدّوا ما ثره لأخطأهم العد ، أو تجاوز بهم الحد . لأنه زهد فى كل شىء إلا المعروف ، ورغب عن كل ذخر إلا ذخر السيرة العَطِرة

رأيته وقد تألّب عليه جماعة ممن لم يتق شر الإحسان إليهم فهم يحركون بالكذب عليه والاتهام ، ألسنة طالما تحركت بالإجلال له والإعظام . وينظرون إليه بأعين ملتهبة ، طالما بكت له من مسغبة . ويطوون على حقده ، قلوباً سبّحت قديماً بحمده . فكان ينظر إليهم نظر المحسن لا يزيده جحود نعمائه ، إلا مضيا فى عطائه

ثم رأيته — ولم يذهب عُرْفه بين الله والناس — فتقدم جماعة من كبار القوم المعروفين بحسن السَّمْت من بين وزير ووكيل وزارة ومُرَبٍّ فاضل فجعلوا يخلعون عليه أبهى من الحلل ، وينسبون إليه من الفضل ما لم يجتمع فى رجل . وهكذا أراد الله أن يُسَجل فضله ويُشكر فِعله حتى فى سجلات الحكومة وحوادث التاريخ .

ذلك هو الأستاذ حسن كامل الشيشينى . وقد خلصه الحق ، ونجاه الصدق . فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً

الفهرس

الصفحة	الموضوع
١	الله
٣	محمد
٥	رمضان فى العتبة الخضراء
٧	الصوم فى نظر الطب
٨	« « الاجتماع
١٠	سماحة الاسلام
١٢	« « أيضاً
١٤	فى سيدنا الحسين
١٦	« « أيضاً
١٨	يسيئون إلى الدين
٢٠	القرآن فى المحافل
٢٢	« « أيضاً
٢٤	ساعة بين كتب الفقه
٢٦	« « « الحديث
٢٨	حنبلىّ ! !
٣٠	توكلت على الله
٣٢	وما خلقت الجن والأنس . . .
٣٤	الدعاء
٣٦	أمريكا والإسلام
٣٨	مشايخ الطرق
٤٠	متنبئ جديد
٤٣	التناقض
٤٥	ولاية القضاء
٤٧	شهادة الزور
٤٩	ليلة القدر
٥١	القلب السياسى
٥٣	كتابنا
٥٦	شاعرنا حافظ
٦٢	شوقى
٧٠	حول الشوقيات
٧٢	تهذيب الكامل
٧٤	ديوان مهيار
٧٨	مراجعات فى الآداب والفنون
٨١	دار الكتب الملكية
٨٤	شيخ الاسلام
٨٧	وحيد الايوبى
٩١	المجمع اللغوى
٩٤	فى المعرض الزراعى
٩٩	فى المرقص
١٠٣	الطفولة
١٠٥	الحظوظ
١٠٧	البورصة
١١٠	الانتحار
١١٢	فقيد العلم والمعارف
١١٥	وفاء شاعرنا حافظ
١٢٣	إلى الصديق البغيض
١٢٥	رواية أربعة آلاف جنيه
١٢٧	رواية الأخوين
١٣١	البراءة

الخطأ والصواب

الخطأ	صوابه	صفحة	سطر
يَفْعَمِ	يَفْغَمِ	٥	٦
حُفِرَ	حُفِرَ	١٥	٢
١٥ رمضان —	١٥ رمضان سنة ١٣٤٤	٤٤	٤
فيه	فيه	٤٦	٣
يجعل	بجعل	٥٦	١٦
أذكر	اذكر	٦٨	١٥
فأقبل	فاقبل	٧٠	٩
لها	لهما	٧٣	٤
باطلة	باطله	٨٠	٥

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
00491996
A.U.B. LIBRARY